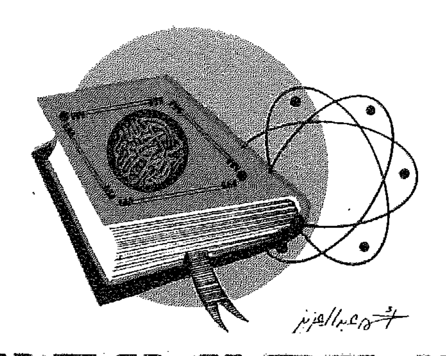
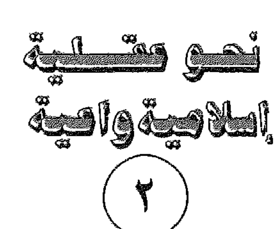




جذور العلمانية

الجذور التاريخية للصراع بين العلمانية والإسلامية
في مصر منذ البداية وحتى عام ١٩٤٨ م

دكتور السيد أحمد فرج

2



اهداءات ٢٠٠٢

ا.د/ يوسف زيدان

مدير المخطوطات و الاهداءات

نحو عقلية إسلامية (٢)

جذور العلمانية

الجذور التاريخية للصراع بين العلمانية والإسلامية
في مصر منذ البداية وحتى عام ١٩٤٨ م

دكتور السيد أحمد فرج
كلية التربية ـــ جامعة المنصورة

الناشر
دار الوفاء للطباعة والنشر
شارع البحر أمام كلية الطب
المنصورة

الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ـــ ١٩٨٥ م

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ،

فإن الذى أثار مسألة العلمانية Secularismفى الآونة الأخيرة ، بيان حزب الوفد الجديد الذى أُعْلِنَ صباح يوم الأحد ١١ مارس ١٩٨٤ والذى تضمن كلاما عن العلمانية .

وليست هذه هى المرة الأولى التى تثار فيها هذه المسألة ، فقد دخلت العلمانية مصر مع الحملة الفرنسية ، ومن يومها عششت فى أرضها ولم تخرج أبدا ، تثيرها أحداث فتظهر فى ميدان الفكر الدينى والسياسى ، وتحجبها أحداث فتختفى إلى حين تظهرها أحداث أخرى وهكذا ، وقد يختلف الشكل الذى تظهر به فى كل مرة ، ولكن الغاية واحدة دائما .

ومنذ فترة ، عقب اتفاق « كامب ديفيد » بدأت تظهر على السطح من جديد ، وتتردد على ألسنة بعض المثقفين المصريين وأقلامهم ، خاصة المؤيدين لها ، وهم الذين يزعمون أن حذو

أساليب التمدن التى ينتهجها الغرب العلمانى ، هى خير السبل المؤدية إلى التقدم والمدنية ، وأقصرها .

غير أن العلمانية لم تشغل الناس مثلما شغلتهم منذ أثارها بيان حزب الوفد الجديد المعلن صباح يوم ١١ مارس ١٩٨٤ ، فقد أعلن فيه : أنه يرفض العلمانية التى تؤدى إلى الفصل بين الدين والدولة ، كما يرفض بالمثل الدولة الثيوقراطية . أى الدولة الدينية التى تتطلب سيطرة رجال الدين على الدولة .

ولكن رأى الوفد ــ مع هذا ــ بدا غامضا ، ولم تتضح مراميه . وطالب الناس بشرح مقاصده ، وبادر محرر جريدة الوفد الى محاورة زعيمه فؤاد سراج الدين ، لعل الحوار يوضح للناس ما غمض عليهم ، من إعلان الوفد لرفض العلمانية والتيوقراطية معا . وكذا موقف الوفد فى هذا الشأن . ورد زعيم الوفد بقوله : هناك أربعة أنواع من الأنظمة الحكمية هى :

الأول : الحكومة اللادينية التى تنكر الأديان جميعا .

الثانى : النظام الدينى البحث ، الذى يسيطر فيه رجال الدين على الدولة كما هو حادث فى إيران حاليا .

الثالث : النظام العلمانى الذى ينادى بفصل الدين عن الدولة .

الرابع : الذى لا يفصل الدين عن الدولة .

وأكد الأستاذ فؤاد سراج الدين أن حزبه يستبعد الصور الثلاث الأولى ويبقى النظام الرابع ، وهو ما يؤمن به الحزب .
(الوفد فى ١٩٨٤/٣/٢٢ ص ٣)

ويتضح من كلام الزعيم الوفدى أنه لم يسم هذا النظام الرابع ، ولم يوضحه ، وبالتالى فقد أحاط رأيه فى كل هذه النظم التى يرفضها ، والتى لا يرفضها غموض لا تتضح معالمه .

ومن هنا لم يتوقف الجدل حول هذه الآراء عند حد ، بل أكثر من ذلك فقد رأى البعض من الذين شغلوا بها ، أن الوفد بدأ منذ تأسيسه علمانيا ، كما رأوا أن فؤاد سراج الدين قد ارتد عن مبادىء الوفد القديمة ، وخرج على الأصول التى نبت منها ، وعبر عن هذا الرأى كثيرون من الوفديين المنسلخين عنه ، ونشر أحدهم مقالا فى الأحرار يوم ١٩٨٤/٤/٢ ينكر على الوفد ردته عن العلمانية ، ويرى فيه أن الوفد سائر فى الطريق إلى جهنم .

والذين يدافعون عن الدولة العلمانية ، يزعمون أن تطبيق الشريعة الإسلامية يؤدى إلى تعطيل تقدم الأمة فى مجال العلوم التطبيقية المتطورة ، وهذا الزعم ليس جديداً على ساحات الفكر

السياسى الإسلامى ، فقد سبق أن رمى رينان وهانوتو وكرومر المسلمين بالتخلف عن ركب التقدم والمدنية ، لأن الإسلام يدفعهم إلى الجمود والتواكل . وقد رد عليهم بالبينة المفكرون الإسلاميون أمثال الأفغانى ومحمد عبده ورشيد رضا ، وبينوا للناس أن الإسلام يدعو الى البحث والتفكر والنظر ، وأن المسلمين عندما أعلوا من شأن العقل كانوا فى مقدمة الأمم فى ميادين العلم والمدنية والحكم . والحق أن الأمة الإسلامية لم تصب بالضعف والوهن إلا منذ أن دهمها الاستعمار التتارى والصليبى ، ثم توالت المصائب عليهم على أيدى الاستعمار الإنجليزى والفرنسى ، ثم الاستعمار الإمبريالى والماركسى ، ثم الاستعمار الصهيونى الاستيطانى لفلسطين . وقد واكب كل ذلك تحلل أخلاق واجتماعى سرى فى جسد المجتمع الإسلامى ، لبعده عن الدين .

ومن هنا يتبين أن الذى أعلنه الوفد من رفض العلمانية ليس بدعا ، فقد بينه بوضوح الشيخ محمد عبده فى كتاب الإسلام دين العلم والمدنية ، فقد أعلن الشيخ محمد عبده أن الإسلام يرفض العلمانية والثيوقراطية معا ، كما بين أن تسلط رجال الدين المسيحى على الدول المسيحية ، فيما عرف بالحكم الثيوقراطى

هو الذى أدى بالأوربيين فى مطلع العصر الحديث أن يسعوا إلى الفصل بين السلطة الدينية والمدنية ، وهو ما يعرف اليوم بالنظام العلمانى ، بينما يختلف الأمر فى النظم الإسلامية ، التى تستبعد أصلا فكرة تسلط رجال الدين — مهما كانت الدوافع على الناس أو على مصالحهم . (الأعمال الكاملة لمحمد عبده طبع بيروت ٢٨٥/٣ — ٢٨٨) .

إذن فهذا الموقف الذى أثاره الوفد ، قد أثير من قبل ، والفرق بين موقف الوفد وموقف من سبقه ، أن موقف السابقين كان واضحا ونابعا من الإيمان بأهمية تطبيق الشريعة الإسلامية ، واعتبارها هدفاً منشودا .

ولهذا فقد خرج الدكتور وحيد رأفت نائب رئيس الوفد على الناس بمقال تفسيرى لبيان الحزب ، وموقفه من العلمانية والثيوقراطيه والشريعة الإسلامية . (الوفد ص ٧ فى ١٩٨٤/٣/٢٩) فقال : حدد الوفد فى بيانه بوضوح موقفه من الدين ورجاله ، ورفضه العلمانية التى تؤدى إلى الفصل بين الدين والدولة ، ورفضه بالمثل الدولة الثيوقراطية أو الدينية التى تتطلب سيطرة رجال الدين على الدولة كما فى إيران حاليا . وجدير بالذكر أن الإخوان المسلمين (وهم حلفاء الوفد الآن ،

وأول المطالبين بتطبيق الشريعة الإسلامية فى مصر) قد وافقوا على هذا البيان ، وارتضوه أساسا للتآلف والتعاون بينهم وبين الوفد ، وفى حديث الشيخ صلاح أبو إسماعيل إلى مجلة آخر ساعة فى ١٩٨٤/٣/١٤ ما يؤكد كل ذلك ويقضى على التقولات .

وبالرغم من أن الدكتور وحيد رأفت عد هذا المقال توضيحا للبيان ، فإن التفسير لا يزال يحتاج الى تفسير أشمل ، هذا إذا علمنا أن هناك كثيرين انزعجوا من هذه المواقف الغامضة ، ومن هنا ثارت مثارات نتجت من عدم وضوح المواقف والآراء التى أعلنها الوفد ، خاصة بعد أن اعتذر الداعية الإسلامى الشيخ محمد الغزالى ، من عدم الانضمام للوفد برغم طلب الشيخ صلاح أبو إسماعيل ذلك منه صراحة ، بدعوى رغبته الشخصية فى خدمة الإسلام عن طريق الدعوة الإسلامية وحدها . يضاف إلى ذلك مطلب الأستاذ عمر التلمسانى من حزب الوفد أن يكون الوفد أول حزب يطبق شرع الله (الوفد ١٩٨٤/٣/٢٢ ص ٧) يضاف إلى ذلك أيضا شكوك الدكتور عبد المنعم النمر التى أعلنها فى مجلة آخر ساعة فى ١٩٨٤/٤/٤ ص ١١) التى عبر فيها عن انزعاجه من آراء الدكتور وحيد رأفت التى حدثه بها فى حديث شفوى دار بينهما فى (أبو ظبى) وتضمن رأيه فى

رفض الدولة العلمانية ، وقبول تطبيق بعض الشريعة الإسلامية ، وترك بعضها ، فقد قال الدكتور النمر بالحرف الواحد : إن الدكتور وحيد رأفت يعارض بشدة أحكام القرآن القاطعة ، ويحكم عليها بأنها غير مناسبة ، ولا صالحة لهذا العصر ، كحد السرقة مثلا ، ويرى أنه ليس من المنطق بعد مرور ١٤٠٠ سنة أن تقطع يد السارق .

وهذا الكلام والعهده على الراوى — كما يقولون — جد خطير ، ويؤكد أن الوفد يخفى نوايا مجهولة إزاء كل من العلمانية ، وتطبيق الشريعة الإسلامية ، وبالتالى تبدأ حلقة جديدة من حلقات الصراع بين العلمانية والإسلامية الذى لم تنته حلقاته بعد . الأمر الذى دفعنا الى تقديم هذا الفصل فى تاريخ جذور هذا الصراع . وستتلوه إن شاء الله فصول .

د . السيد أحمد فرج

ميت سويد فى ٦ / ٤ / ١٩٨٤

الجذور التاريخية للصراع بين العلمانية والإسلامية في مصر منذ البداية حتى عام ١٩٤٨

يرى الدارسون المحدثون من أساتذة التاريخ الحديث والفلسفة فى الجامعات المصرية أن أول ظهور العلمانية بمصر كان مع حملة نابليون تعبيرا عن روح الثورة الفرنسية ، وأنها اتخذت طابعا رافضا لكل ما هو دينى ، ولهذا فهؤلاء المحدثون يطلقونها لتعبر عن الإطار العام الذى احتوى الأفكار التى حملها نابليون .

وهذا الفهم ، له إدراك شبيه بالمعنى نفسه لدى الجبرتى مؤرخ مصر الكبير ، فقد ذكر الجبرتى المعاصر للحملة الفرنسية أوصافا لعقيدة الفرنسيين تفيد هذا المعنى نفسه فهو يصف الفرنسيين بأنهم « لا يتدينون بدين ، ويقولون بالحرية والتسوية[١] .

وهذا صحيح ـــ فعلى حد قول الدكتور صلاح العقاد أن الأفكار التى كان يحملها الفرنسيون إلى مصر كانت تتسم

بالعلمانية ، لأن « أثر الفكر العلمانى الذى خلفته الثورة الفرنسية كان لا يزال قويا ولذلك لم تصطبغ الحملة الفرنسية بصبغة دينية . ومن هنا قال فيهم الجبرتى : « إنهم لا يتفقون على دين ، فكل واحد منهم ينحو دينا يخترعه بتحسين عقله[٢] .

وأسماهم جمال الدين الأفغانى بالدهرية أو الطبيعيين ، وذكرهم بمصطلحهم الغربى (النبتشريين)[٣] -Naturalism وهم الذين يقصرون الوجود على الطبيعة المنظورة ، وأن لا شىء خارج الطبيعة ، فالطبيعة مستكفية بنفسها مستغنية عن خالق يوجدها .[٤]

ووصف أرنولد توينبى A. Toynbee محمد على بأنه كنابليون مثله مثل تلك القلة من الرجال الذين حولوا مجرى التاريخ ، وقد يرى أحد الدارسين أنما قصد توينبى أن يقول : إنه مثله طموحا ، وقدرة على اتخاذ القرارات وتنفيذها ، وهذا صحيح فكلاهما لم تكن تهمه الوسائل بقدر ما كانت تعنيه الغايات ، مع هذا فهو مثله أيضا « علمانى أراد أن يقيم دولة علمانية »[٥]

ووُصف رفاعة الطهطاوى ــ الأزهرى الأصل ، وإمام مبعوثى محمد على إلى فرنسا ثم إمام التحديث فى مصر الحديثة

فيما بعد ، بالعلمانية وأنها كانت صفة تميز مقاصده . يقول الدكتور عزت قرنى فى دراسة حديثة ضمت فكر رفاعة الطهطاوى : رفاعة الطهطاوى هذا الرجل العلمانى المقصد .(٦)

وإذا كان هذا الوصف الأخير لرفاعة الطهطاوى ، يجب أن يحاط بسياج من عدم التسرع فى إطلاق الأحكام ، فإن معنى العلمانية ، حتى نهاية القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين ، كان يعنى اتخاذ الأساليب والمسالك غير الدينية فى السعى إلى النهضة والتقدم ، والتماسهما عن طريق علمانى .

على أن العلمانية كمصطلح Secularism لم يعلن عنه إلا فى العقد الثانى من القرن العشرين ، ومن يومها صار سمة تميز فكر القوى المناهضة للذين أى دين ، وسلوكها .

ويرى الدكتور محمد البهى أن هذا الاتجاه العلمانى نشأ وتبلور فى ظل الثورة الفرنسية منذ ١٧٨٩ م بعد أن رفض الأوربيون الخضوع للكنيسة الكاثولكية ، ووساطة البابا صاحب الحق فى الغفران ، والجزاء باللعن نيابة عن الله . ومن هنا ترك هذا المجتمع الاعتماد على الله ، إن لم يكن قد خالجه الشك فى وجوده . وبدأ الإنسان فى هذا المجتمع يعتمد على نفسه فى تفكيره ونظمه ، ولم يعد ينظر إلى السماء التى يوجد فيها الله ، وبدأ ينظر إلى العالم ،

أى إلى الأرض .

وعرف هذا الاتجاه الأرضى فى محيط المجتمعات الإسلامية ، بعد المخالطة الفكرية بين الغرب والشرق ، باسم الاتجاه العلمانى ولعله منسوبا على غير قياس إلى العالم ، وهذا الاسم ترجمة للكلمة اللاتينية Saec (u) 'Larism التى عرفت فى الإنجليزية باسم Secularism كاتجاه ومذهب .

وصحب كلمة العلمانية فى محيط المجتمعات الإسلامية كذلك معنى الابتعاد عن الدين فى التوجيه ، وفى التربية وفى التشريع ، وفى نظام الحكم ، وأصبح يفهم من هذا المصطلح : ذلك الاتجاه الإنسانى المستقل عن السلطه الدينية ، وعن اتباع علماء الدين المسلمين(٣) .

ولقد غزت العلمانية الشرق الإسلامى منذ وقت طويل ، بتخطيط من الأوربيين ، بنشر محاسنها ، وإظهار تفوق أهلها ، وفى الجانب الآخر إحباط كل بادرة يقظة للشعوب الإسلامية التى تغزوها . وجعلهم يحسون دائما بالقلق والفشل ، والضعف وعدم القدرة على النهوض من سباتهم الطويل .

١ ــ ولقد ساعد على نشر هذه المثبطات بين المسلمين

المعاصرين ، أنهم يؤمنون بما جاء به القرآن الكريم ، فهو أصل دينهم وشريعتهم الغراء ، وموجههم فى شئون حياتهم ومعادهم ، ومخبرهم بأنهم « خير أمة أخرجت للناس ، وأنهم الوارثون للأرض » من قوله تعالى : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ آل عمران : ١١٠ ، ﴿ **أن الأرض يرثها عبادى الصالحون** ﴾ الأنبياء : ١٠٥ .

بينما واقع المسلمين ينبىء بغير ذلك ، فهم غرباء فى أوطانهم ، مضطربون قلقون غير مستقرين على أرضهم ، تختلط عليهم الآراء والأفكار والمعتقدات ، وهم بين الأمم فى حثالة من الناس .

٢ ــ إن الذى خلق هذه الحالة التى يتردى فيها المسلمون اليوم عوامل القرون التى تداعت فيها حضارة المسلمين ، واهتز فيها كيان العالم الإسلامى ، وبخاصة فى أواخر العصر العثمانى ، ذلك العصر الذى يمكن أن نطلق عليه أكثر العصور تداعيا وتدنيا فى تاريخ الإسلام والمسلمين .

٣ ــ صاحب انحدار المسلمين ، وانهيار حضارتهم ، التقدم العلمى المذهل الذى حققته أوربا ابتداء من القرن

السادس عشر الذى اختتم بإنجاز علمى كبير هو اختراع جاليليو جاليلى G-Galilei مهد لظهور العبقريات العلمية فى القرن الذى يليه أمثال : ديكارت وهارفى ، وباسكال ، ونيوتن ، ذلك القرن السابع عشر الذى تُوج بإنشاء الأكاديميات العلمية لترعى العلم والعلماء . كالجمعية الملكية البريطانية ١٦٦٠ وأكاديمية العلوم الفرنسية ١٦٦٦ وبعدها أخذ العلم الأوربى يشق طريقه لا يوقفه شىء ، فأحرز تقدما مذهلا ، وحقق المعجزات .

وصاحب هذا التقدم العلمى تقدما صناعيا ، واقتصاديا ، ورغبة ملحة من العالم المتقدم فى استعمار العالم الضعيف ، وامتلاكه ، وإخضاعه لسيطرته ، كما صاحب هذا التقدم العلمى الثورة ضد الدين فقد اقترنت سلطة المسيحية ونفوذها بتخلف أوربا ، وصار الإله الجديد لأوربا : العلم والآلة والمال ، والرغبة فى الدعوة لمبادئهم الجديدة بين شعوب الأرض . وإقناعهم بأن ما يذهبون إليه هو الصحيح وماعداه باطل . وقد قامت حجتهم على إقناع هؤلاء المتخلفين ، بأن سبب تخلفهم هو تمسكهم بدينهم مؤكدين لهم أن الأوربيين لم يحرزوا

كل هذا التقدم العلمى المذهل ، إلا بعد نبذ الدين والتمسك بقيم العقل .

فى ظل هذه الظروف ، اهتز كيان المسلم وتزلزل ، وبدأ يفقد الثقة بحضارته وفكره ، وقدرته على أن يلحق بالمتحضرين الأوربيين ، وصور له واقعه أنه لا سبيل للنهوض من غفوته إلا باعتناق كل ما هو أوربى ، ونبذ كل ماعداه .

ولكن كيف حدث هذا ؟ وما العوامل التى ساعدت على حدوثه ؟ وماذا كان موقف الإسلاميين منه ؟

أولاً : تحلل المجتمع الإسلامى :

تحلل المجتمع الإسلامى وكاد أن ينهار فى آخر العصر العثمانى ، ويصور الجبرتى هذه الحقبة المظلمة فى تاريخ المسلمين فيقول : « وغالبها محن أدركناها ، وأمور شاهدناها[8]ووصف الجبرتى لها بهذا الوصف دليل على مدى الهوة السحيقة التى انحدرت إليها الحياة فى هذا المجتمع .

ويصف الجبرتى طبيعة الحياة فى المجتمع المصرى الإسلامى ابتداء من (١٠٩٩ هـ ــ ١٦٨٨ م) وهو البداية الحقيقية لأفول نور الشرق كما أنه البداية الحقيقية لبزوغ نور الغرب ، فقد

سيطر العثمانيون والمماليك على هذا المجتمع ، وتسلطوا على الناس الذين عانوا من ظلمهم أشد المعاناة ، لما اتسم حكمهم بالظلم وضيق الأفق ، وعدم فهم لروح الإسلام .

فى هذا المجتمع كان العثمانيون والمماليك هم الحكام ، وكان أقرب الناس إليهم علماء الدين ، الذين لم يكن لهم تأثير كبير على حركة المجتمع ، فى مجال إحياء الفكر الدينى ، بل كانوا من أكثر فئات المجتمع تمزقا وتصارعا حول اعتناق مذهب فقهى بعينه ، وتفرقوا إلى فرق إسلامية متنافرة ، كفرق علماء المذاهب الأربعة ، وفرق الأشراف وفرق المتصوفة ، ولم يحاولوا أن يقدموا أفكارا إسلامية تساعد فى حل مشاكل مجتمعهم الإسلامى ، ولكنهم حرصوا فقط على حراسة مكاسبهم المادية كالتمتع بخلع الحكام عليهم ، وهباتهم لهم ، واغتصاب عوايد الأوقاف الإسلامية التى خصصت أصلا لرعاية المؤسسات الدينية والتى ترك لهم حق الإشراف عليها وتنسيق أمورها وتنظيمها .

كانت ظروف الأمة الإسلامية السيئة فى هذه العصور قد قسمت الأمة إلى حكام ومحكومين تفصل بينهم هوة واسعة لا تلتئم ، فالعثمانيون والمماليك يحكمون ، ولهم بلاطهم ومجتمعهم المكون من بنيات غريبة عن المجتمع الإسلامى ، فهم فى الأصل

رقيق أجلاب خليط من أجناس شتى ، من أصناف منفصلة متفرقة تجمعهم المصلحة على إذلال الأمة ، وعاشوا فيما بينهم على هذا الأساس ، وكانت أكبر جرائمهم أنهم قصروا أعمال الجندية على أنفسهم وحرموا أصحاب الأرض من حق الدفاع عنها ، أو المشاركة فى حراستها ، وصار المدافع عن الأمة والملة هم الغرباء ، وتلك أكبر الأسباب التى تنسى المواطن وطنه ، وتفقده روح الغيرة عليه ، وتنسيه فريضة الجهاد والحرص عليها ، وتميت فى نفسه كل قيمة تعلى من شأن جماعته ، بل وتفقده روح الانتماء إلى الدين الذى يعتنقه ، والأرض التى يملكها ، والتراب الذى شب عليه .

هذا من ناحية إماتة روح الانتماء والولاء للمقدسات والأرض ، ومن ناحية أخرى فإن هذا الجو العسكرى الغريب ، كان إسلامى المظهر فقط أما جوهره فهو لا يعترف بحقوق أى فرد فى الأمة لا يحمل السلاح فالمحاربون هم العثمانيون والمماليك ، وهم أصحاب الحقوق وأصحاب الرأى والأمر والنهى ، تحكمهم شريعتهم الحربية ، وإن تظاهروا باعتناق الإسلام ، وما أكثر ما أشار الجبرتى إلى : « كثرة تعدى عسكرهم وانتشارهم فى القرى والبلدان ، وفعل كل قبيح ، وحبسهم الناس والتجار ومصادرة أموالهم وسلب ما

بأيديهم[٩] .

ثانياً : الاستعمار الغربى الفرنسى أول مبشر للعلمانية فى الشرق الإسلامى .

لعل انهيار أى مجتمع وتحلله من الداخل ، يمهد لتقبل أشكال جديدة من الحياة والأفكار، يحملها له غيره من بيئة تخالف بيئته ، وهذا ما حدث للمجتمع المصرى المسلم فى أواخر العصر العثمانى ، واحتلال الفرنسيين لأرضه .

لقد لاحظ الجبرتى بنظرته الثاقبة خطورة هذا التغيير الذى وضع الفرنسيون ركائزه . فقد فهم الجبرتى أن الفرنسيين لا يقيمون وزنا للدين وإن تظاهروا باعتناق الإسلام ، ويعبر الجبرتى عما اختلج فى صدره من هذه الوجهة فيقول : خطب كثير منهم بنات الأعيان وتزوجوهن رغبة فى سلطانهم ونوالهم ، فيظهر (الفرنسى) حالة العقد ، الإسلام وينطق بالشهادتين ، لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها[١٠] .

« ولقد استقبح الجبرتى مستحدثات الفرنسيين كانفلات بعض الرجال والنساء وتحللهم من المثل الأخلاقية التى انطبع بها المجتمع المصرى،خاصة وقد أبيح البغاء العلنى ، وسفرت بعض

النساء ، واختلطن بالرجال ، وتمردت بعض الفئات الاجتماعية على الأوضاع الموروثة وارتدت ما كان محرما عليها من ملابس ، وتحدت العرف الإسلامى »[١١] .

وكان الجبرتى على حق ، فقد جاء نابليون إلى مصر يحمل معه أفكار الثورة الفرنسية ، التى بلورت فكر أوربا كله فى القرن السابع عشر والثامن عشر ، والقائم على تأسيس مبدأ دنيوى خالص يقوم على احترام بحث الإنسان وفكره ، ذلك الإنسان الذى يكافح وينجح فى حياته المادية الخالصة ، ويعلن عصيانه على الدين ، ويرفع شعار « إنما يصنع الإنسان نفسُه عالمه » ، ويدعو إلى انطلاق الفرد نحو الرغبات الشهوانية الكامنة فى نفسه ، ورفض كل ما يقف فى سبيل حرمانه منها . جاء نابليون يحمل معه « مبدأ التقدم فى صورته كما تخيلها الأوربيون فى القرن الثامن عشر ، وهذا المبدأ يؤكد بشدة الجانب المادى من التقدم ، وهو يتوقع أن يتم التقدم نتيجة لتحرير الكائنات البشرية العاقلة الطيبة بطبيعتها من قيود القانون والتقاليد والعادات ، بل ومن أكثر ما شيدته المسيحية التقليدية فى ألف وسبعمائة عام . هذا المبدأ الذى يقول : بالخير الطبيعى عند الإنسان ، هوعند المسيحى التقليدى (يقصد المتمسك بالمسيحية) الزندقة

الأساسية فى حركة التنوير »[١٢] .

فهم الجبرتى بحاسته الإسلامية أهداف الفرنسيين اللادينية وعبر عن ذلك بقوله : إن الفرنساوية لا يتدينون بدين ، ويقولون بالحرية والتسوية »[١٣] .

والجبرتى الذى لم يكن مسلما جامدا ، يميز بين ما هو نافع ويمكن قبوله ، وبين ما هو ضار ويجب رفضه ، يمجد فى الفرنسيين حبهم للعلم والفن ، والبحث العلمى ، وحرصهم على نشر العلم والتثقيف بين الناس . ونراه لهذا يصف باهتمام بالغ تلك الحركة العلمية والفنية التى بعثوها فى مصر ، يقول الجبرتى : « وأفردوا مكانا للمديرين والفلكيين ، وأهل المعرفة والعلوم الرياضية كالهندسة والهيئة ...

وعندهم كتب مفردة لأنواع اللغات وتصاريفها ، واشتقاقاتها بحيث يسهل عليهم نقل ما يريدون من أى لغة كانت إلى لغتهم فى أقرب وقت »[١٤] .

ولكنه مع ذلك رفض لعبهم بالدين .

لقد أتى الفرنسيون بأشياء مفيدة ، وأشياء سيئة فى الوقت نفسه ، فهم الذين صحبوا العلماء وأنشأوا أكاديمية علمية فى حى

الناصرية بالقاهرة ، وهم الذين زينوا للمصريين ممارسة كل فعل مخالف لدينهم . فعن طريقهم تبرجت المرأة المصرية المسلمة ، وسفرت وخرجت ، واختلطت بهم ، ورافقتهم فى نزهات نيلية يقول الجبرتى : « وصحبتهم فى المراكب مع الرقص والشرب فى النهار والليل ... وملاحو المراكب يكثرون من الهزل والمجون ، ويتجاوبون برفع الصوت بسخيف موضوعاتهم ... وخصوصا إذا دبت الحشيشة فى رءوسهم ، وتحكمت فى عقولهم ، فيصرخون ويطربون ، ويرقصون ويزمرون ، ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية »(١٥) .

إن الممعن فى كلام الجبرتى يحس من عباراته مدى خوفه على سقوط الميثاق الاجتماعى الذى يجمع المسلمين حوله على أسس وركائز دينية إسلامية ، كما يحس فى الوقت نفسه تحذيره من مغبة الخطر الناتج عن هذه النقلة الاجتماعية المخالفة لجوهر العقيدة ، وما يمكن أن يحدثه سريانها فى سائر المجتمع من تدمير البناء الدينى الراسخ من قديم .

ولهذا فقد كانت أكبر الأمور التى أرقت الجبرتى وأهمها ، وأكثرها قسوة على نفسه تلك النهاية المؤسفة التى انتهى إليها أغلب علماء الدين ــ بعد رحيل الفرنسيين ، وكانوا من الكثرة

لدرجة أن الجبرتى كاد أن يقول كل علماء الدين . وربما كانت هناك قلة من العلماء الدينيين الغيوريين على دينهم كالجبرتى ، ولكنا لا نكاد نلمح لهم ذكرا ، أو إشارة فى كلامه ، لقد أحدث التغيير فعله فى علماء الدين ، وهم الذين ظلوا على مدى تاريخ المسلمين أكبر الحراس على العقيدة ، ويشير الجبرتى إلى هؤلاء العلماء بعد جلاء الفرنسيين عن مصر وعودة المماليك ، موضحا مدى التغيير الجذرى الذى حدث لهم وكأنه أراد أن يقول إن أعمدة البناء تتساقط فاحذروا .

يقول الجبرتى : « عاد المماليك بعد رحيل الفرنسيين الى أسوأ مما كانوا ، إلا أنهم استثنوا المشايخ الذين اغتروا بذلك ، واعتقدوا دوامه وأكثروا من شراء الحصص من أصحابها المحتاجين بدون القيمة ، وافتتنوا بالدنيا ، وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم . مع ترك العمل بالكلية ... وانقلب الوضع منهم بضده ، وصار دينهم واجتماعهم ذكر الأمور الدنيوية والحصص والالتزام ، وحساب الميرى والفايظ (الربا) والمضاف والرماية والمرافعات والمراسلات والتشكى والتناجى مع الأقباط والتفاخر بترددهم والتردد عليهم والمهاداة فيما بينهم إلى غير ذلك مما يطول شرحه .. مع ما جبلوا عليه من الشح والاستجداء ، والتطلع للأكل فى ولائم الأغنياء والفقراء والمعاتبة عليها إن لم

يدعوا إليها ... وارتكابهم الأمور المخلة بالمروءة المسقطة للعدالة كالاجتماع فى سماع الملاهى والمغانى والقيان ، والآلات المطربة ، وإعطاء الجوائز والنقوط بمناداة (الخلبوص) مخاطبا رئيسه المغانى : « ياستى حضرة شيخ الإسلام والمسلمين ، مفيد الطالبين الشيخ العلامة فلان ، منه كذا وكذا ، كل ذلك من غير احتشام ولا مبالاة ، مع التضاحك والقهقهة المسموعة من البعد فى كل مجتمع ومواظبتهم على الهزليات والمضحكات ، وألفاظ الكناية المعبر عنها بالأنقاط والتنافس فى الأحداث »(١٦) .

لقد أثر وجود الفرنسيين فى كل الناس ، وجعلهم يقبلون على أشياء ينكرها دينهم حتى علماء الدين وقعوا فى المنكر ، وقد يقول قائل : إننا لا نعدم وجود علماء دين فسقه ، فى أى عصر من العصور وهذا صحيح ، ولكن المشكلة أن يكون الانحراف والسقوط يكاد يكون جماعيا ، لافرديا .

لقد كان الجبرتى يرى فى هذه الهيئة قوة تقود المجتمع للثورة ضد الغزاة ، وقد حدث هذا فعلا فى بداية احتلال الفرنسيين للبلاد ، ولكنهم الآن بعدوا عن المشاركة الجادة فى البناء الاجتماعى ، وتفرغوا لشهواتهم ، وتركوا البناء يسقط . بينما وقف الجبرتى يحذر من مغبة هذا السقوط ، معلنا رفض

مظاهره .

والحقيقة لم يرفض الجبرتى ، كأى مسلم حريص على نهضة مجتمعه كل ما هو فرنسى فقد أقر بأن الفرنسيين وهم دهرية معطلين للميعاد وللحشر منكرين ، ولله وللنبوة والرسالة جاحدين « إلا أنهم كانوا يجتهدون فى الأخذ بأسباب العلوم الحديثة وأنهم كانوا فى حكمهم أقرب إلى العدل من العثمانيين »(١٧) .

ولكنه أنكر عليهم تنكرهم لكل ما هو دينى ، فقد كان يرى نفسه أحد الحراس على البناء الدينى فى عصره ، ولهذا فقد استطاع أن يترك تلك الصورة الواضحة عن انهيار الركائز الدينية فى المجتمع ، ذلك المجتمع الآيل للسقوط ـــ المتحلل من الداخل . والمهدد فى كل لحظة من خارج حدوده ، من هؤلاء القادمين من الغرب .

غير أنه فى مراحل الانهيار ، وإعادة البناء على شكل آخر ، وهيئة أخرى لا بد من وجود المؤيد والمعارض للقديم والجديد ، وبينما كان الجبرتى يخشى من ذلك الجديد كان صديقه الشيخ حسن العطار يؤيده .

ولقد كان الشيخ حسن العطار أكثر استجابة للوافدين ،

ومعاونة لهم ، « وكان أكثر استعدادا لمسايرة التحديات الحضارية الحديثة ، وإيمانا بضرورة الأخذ بعلوم أوربا ، وضرورة أن يغير الشرقيون ما فى عقولهم » .[١٨]

وكان الجبرتى متفقا مع صديقه حسن العطار فى ضرورة الأخذ بعلوم أوربا ، ولكنه خالفه فيما يمكن أن تتضمنه العبارة الثانية من تغيير لعقول الشرقيين المسلمين .

والحقيقة فقد كان الجبرتى بعيد النظر ، فقد تسببت عزلة علماء الدين عن المجتمع أن جنح المصريون فى القرن التاسع عشر إلى التمسك بفكر دينى عدمى ، لا يسلك مسلكا أتى به الشرع ، وإنما هو نوع من الاستكانة الروحية المرتمية فى محتوى غيبى فى صورة تصوف سلبى جامد لا يتحرك ، واعتقاد فى كرامات البلهاء والمعتوهين والقبوريين »[١٩] حتى وصل المجتمع إلى أسوأ حال يمكن أن ينحدر إليها مجتمع ، وقد وصف الجبرتى هذه الحال بقوله : لم نكن بررة أتقياء ، ولا فجرة أقوياء »[٢٠]

ازداد الدين بعدا عن الناس ــ فى هذه الحقبة ــ حكاماً ومحكومين ولكل علته فقد ابتعد الحكام عنه ، لأن تطبيق شرائعه ليس فى صالحهم ، وعن المحكومين ، لأنهم لم يعودوا قادرين على فهمه .

وحرم المسلمون من تطبيق شريعتهم طيلة هذه الحقبة من الزمن كما حرموا أيضا من المكاسب الإنسانية المادية التى أقرها القرآن ، ودعاهم إلى الأخذ بأسبابها والحصول عليها . وبدلا من أن يخضعوا واقعهم لأحكام الإسلام ، أخضعوا الإسلام لواقعهم المخزى فجمدوا ، وابتعدوا عن الفهم الصحيح لدينهم القيم ، وفسروا شريعتهم الغراء ، بالباطل فى إطار واقعهم المعيشى ، واطمأن الحكام إلى هذه الحال ، فما كانوا ليقبلوا أن يقدم عالم مسلم على الربط بين الدين والحياة ، فيهدد سلطانهم من جذوره ومن هنا جمدت النصوص ولم تتحرك ، ولم تتفاعل مع حركة الحياة ، ولم تصل المسلمين بماضيهم العظيم الذى انقطع سبيله بتوقف حركة المسلمين .

محمد على وبنوه :

كان محمد على الذى اعتلى حكم مصر بعد خروج الفرنسيين ، كنابليون فكلاهما كانت تحركه أهداف علمانية ، وكان طموح نابليون الذى حققه فى أوربا . بعد رحيله من مصر ، أكبر عوض عن فشله فى تحقيقه فى الشرق ، ثم إن الاستعمار نفسه لم يخسر شيئا ، فقد استطاع أن يحقق أهدافه عن طريق المسلمين أنفسهم ، ولا يعنى فشل نابليون فى حصار عكا

وغزوها أن تظل مغلقة ، وليكن فتحها على يد قائد مسلم هو إبراهيم بن محمد على . « فلقد كانت حروب ابراهيم باشا فى عكا وفلسطين وسوريا والأناضول والجزيرة العربية لمحاربة جماعة محمد بن عبد الوهاب (أول الإسلاميين الخلصاء فى العصر الحديث) تحت راية الإسلام ، وسلاح فرنسى ، ومشورة فرنسية ، وخبراء عسكريين فرنسيين ... وكانت هذه الحروب (التى قادها قائد مسلم ، وتحاربت فيها جيوش مسلمة) تحقيقا للتخطيط الذى رسمه المستشرق الفرنسى الكونت (فولنى) الذى حفظه نابليون عن ظهر قلب ، قبل حملته على مصر ، إذ كان ينادى هذا المستشرق بأن السيطرة على الشرق لا تتم إلا بعد ـــ الاستيلاء على مصر والشام ، وتحطيم الخلافة العثمانية »[٢١]

إذن فكل الذى يهم الدول الاستعمارية هو القضاء على وحدة الشعوب الإسلامية ، ولما لم يستطيعوا تحقيقها ـــ فى هذه الخطة بالذات ـــ بسيف نابليون ، فليكن إمضاء الخطة بيد محمد على وابنه إبراهيم .

لم تكن فكرة التسلط الأوربى وتمزيق العالم الإسلامى بالفكرة الطارئة ، فقد بذرت أوربا بذورها منذ القرن السابع عشر وبروز

دور البرجوازية كعامل مؤثر على الحياة الأوربية نتيجة للتقدم العلمى ، والانشقاق الدينى البروتستانتى عن الكنيسة البابوية الكاثوليكية الذى أعطى الثقة للأفراد العاديين أن تكون لهم الشخصية المستقلة التى لا تسيطر عليها السلطة البابوية . وكان من أسباب إلغاء سلطة البابا والكنيسة الكاثوليكية وكذلك سلطة الملوك المستظلة بالسلطة الدينية ، على الناس ، أن نما عامل مؤثر جديد فى مسيرة المجتمع الأوربى ، وهو الحرية الاقتصادية ونشوء الرأسماليين ، الذين اندفعوا يعضدون العلم ، ويسخرون ماهم له ، وبالتالى سُخر العلم لهم ، ولأغراضهم فى توسيع دائرة نشاطهم بالاستيلاء على الشرق .

وساوق الحرية الدينية فى أوربا فكرة الوطنية ، فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية البابوية تسيطر على أوربا المسيحية كلها ، ولكن بعد انشقاق اللوثرية البروتستنتينية عن الكاثوليكية ، كان هذا الانشقاق بادرة لإحلال فكرة الكنيسة الوطنية ، محل فكرة الكنيسة الشاملة ، وعندما أصبح لكل دولة كنيسة وطنية ، صارت هذه الكنائس تحل فى كل دولة من دول أوربا محل البابوية ، ثم تحولت فكرة الكنيسة الوطنية إلى فكرة الدولة الوطنية . ولما كانت الحرية مواكبة لكل أنواع التغيير فى أوربا ، وتقف ضد كل أصناف القيود التى قيدت الحياة الأوربية فى

العصور الوسطى ، كانت هذه الحرية ، حرية شمولية فى الدين والعلم والمال والفن ، وهى أركان الحرية التى بلورتها الثورة الفرنسية ، وتعهدت بنشرها فى ربوع الأرض .

إذن فلم تكن الفكرة طارئة ، ولكن أوربا كانت قد أسست لها ، ورأت وجوب استقلال كل جنس بنفسه ، وصارت القاعدة التى عمل بها رجال السياسة الاستعمارية ، حيث توافق مصالحهم ، حتى لقد « رأوا وجوب اطرادها لمصلحة البشر ، وإن كان استقلال بعض الأجناس يتنافى مع مصلحة جنس آخر سائد عليه أو متعزز به »(٢٢) .

ولم تكن هذه الأفكار والمبادىء التى أراد الأوربيون نشرها فى بلاد المشرق الإسلامى وليدة القرن التاسع عشر ، وإنما ترجع إلى ثلاثة قرون مضت ، أخذوا يعملون على نشرها بشتى الطرق ، ثم انتهى قرارهم إلى إنشاء المدارس من أجلها فى أنحاء بلاد الخلافة العثمانية ، وقد كان لهذه المدارس أكبر الأثر على الناشئة من المسلمين الذين وصلوا إلى حد الإيمان بهذه المبادىء ، وتقديمها على المبادىء الموروثة . ولقد اعترف المبشرون أنفسهم بأهمية تأثير هذه المدارس على الأجيال ، وأهميتها فى تربيتهم على تقبل الأفكار العلمانية ، والعمل على نشرها فيما بعد فى البلاد

الإسلامية . اعترفوا بذلك فى مؤتمرهم الذى عقد فى عاصمة الدولة العثمانية التى كانت لا تزال جامعة للدول الإسلامية ، فى العقد الثانى من القرن العشرين . وقد نشر هذا الاعتراف فى مجلة العالم الإسلامى التى يحررها هؤلاء المبشرون باللغة الإنجليزية ، واللغة الفرنسية ، وهذا نصه « اتفقت آراء سفراء الدول الكبرى فى عاصمة السلطنة العثمانية على أن معاهد التعليم الثانوية التى أسسها الأوربيون ، كان لها تأثير كبير فى حل المسألة الشرقية ، يرجح على تأثير العمل المشترك الذى قامت به دول أوربا كلها »(٢٣) .

ولا يخفى على أريب لبيب فطن ، ما المقصود بهذه العبارات ، فهم هدفوا أن ينشئوا هذه الدول على مبادئهم ، فيغزونها بها لا بجيوشهم وهذا أجدى وأنفع لهم وأسرع فى تحقيق مآربهم من الجيوش الجرارة . أى أنهم فى البداية رأوا أن يستعمروا هذه الدول عسكريا وسياسيا بقوى إسلامية (محمد على وابنه إبراهيم ، وفكريا (محمد على وبنوه) وقد بلغت هذه الخطة درجة كبيرة فى مرحلة الاحتلال الإنجليزى لمصر ، على يد اللورد كرومر . إذن كان محمد على امتدادا لنابليون فى مصر ، ومبادىء العلمانية التى أرساها نابليون وجيوشه الفرنسية ، مكن لها محمد على بعد ذلك ، بعد أن قوض سلطة الأزهر ، وأضعف نفوذ

علماء الدين ، وأتى بكل مالا يتفق وفكرة الحاكم فى التصور الإسلامى ، الذى يجسد صورة العدل بمعناها الشرعى .

لقد مهدت أوربا — خاصة فرنسا — كيف تحكم مصر بعد خروج الفرنسيين منها ، وكانت خطة محمد على فى التحديث استمرارا لخطة نابليون ، وأقام محمد على دولته العلمانية التى لا تفرق بين مواطن وآخر ، إلا بمقدار ما يقدمه لها من خدمات ، دون ما اعتبار لدين أو عرق أو لون ، تماما كما فعلت فرنسا بعد نجاح ثورتها الكبرى ، وبنفس الأسلوب والمبادىء التى حملها نابليون وجيشه إلى كل بقعة وطئتها أقدامهم من العالم . وكان محمد على كنابليون يمضى كالسهم لا يوقف تقدمه شىء ، لضعف العلماء ، وقلة الأفاضل منهم ، وقلة حيلتهم .

ويشهد الشيخ محمد عبده الذى عاصر عددا من أسرة محمد على على هذا العصر فيقول : « إنه (محمد على) أطلع نجم العلم فى البلاد ، ولكنه لم يفكر فى بناء التربية على قاعدة من الدين والأدب ... أو وضع حكومة منظمة يقام بها الشرع ويستقر العدل ... وحتى الكتب التى ترجمت فى فنون شتى ... ترجمت برغبة من الأوربيين ، الذين أرادوا نشر آدابهم فى البلاد ... وحرم المصريين من بلوغ الرتب فى الجيش ، لذلك لم تلبث تلك

القوة (الجيش) أن تهدمت واندثرت وظهر الأثر عندما جاء الإنجليز لإخماد ثورة عرابى ... ثم استقروا ولم توجد فى البلاد نخوة فى رأس تثبت لهم أن فى البلاد من يحامى عن استقلالها .

وقد لا يستحى بعض الأحداث من أن يقول : إن محمد على جعل من جدران سلطانه بنية من الدين ... فليقل لنا أحد من الناس أى عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة للدين الإسلامى . إلا مسألة الوهابية وأهل الدين يعلمون أن الإغارة فيها كانت على الدين لا للدين .

نعم أخذ ما كان للمساجد من الرزق ، وأبدله بشىء من النقد يسمى فائض روزنامة لا يساوى جزءا من الألف من إيرادها ، وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقى له اليوم لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه فى السنة ، وقرر له ما يساوى نحو أربعة آلاف جنيه فى السنة ، وقصارى أمره فى الدين أنه كان يستميل بعض العلماء بالخِلَع أو إجلاسهم على الموائد ... أما أفاضل العلماء كانوا عليه فى سخط ماتوا عليه »[٢٤] .

من هنا يمكن أن نقول إن نبوءة الجبرتى قد تحققت ، فالمجتمع التقليدى كاد أن يزول على يد محمد على . الذى قضى على سلطة

المماليك والعثمانيين كما قضى على سلطة التجار ، وقوض كيان السلطة الدينية ، التى تحول مشايخها إلى دود ينخر فى جثة المجتمع العفنة »[٢٥]

وعلى كل حال فقد استولى محمد على ، على ثروات الدوائر الدينية ، وحرم المشايخ من سابق وظائفهم التى هيمنوا بها على المجتمع ، وحكم عليهم بالعزلة التامة ، حتى لم يعد فى استطاعتهم أن يظهروا أمام الناس بأنهم القوة الوحيدة التى تستطيع أن تفرض على الحكام أن يحكموا بمقتضى العدالة الواجبة »[٢٦] .

ولقد كان لتصرف محمد على هذا موافقة من بعض المستشرقين المعاصرين فيما بعد فأطلقوا عليه مبدأ الاعتراض على الخضوع الأعمى لمبدأ السلطة البشرية »[٢٧] .

وقد استمر هذا التيار الذى أراده محمد على قرابة أربعين سنة ، وكان مُفَكِّره رفاعه الطهطاوى الذى راد حركة التحديث فى أول عملية منظمة تدعوا إلى ضرورة تغيير العقلية المصرية ، وتقبل المبادىء الأوربية . ثم توقف هذا المد قليلا حتى جاء عهد سعيد ١٨٥٤ م ، وهى السنة نفسها التى دخل فيها المبشران الأمريكيان مكاج وبارنت مصر ، ليبدأ نشاط الإرساليات الأمريكية ، وأهدى سعيد باشا ١٨٦٢ م للإرسالية الأمريكية

مبنى كبيرا ، ليباشروا فيه نشاطهم ، فمنحوه لقب (الأمير الطَّيب المستنير) ولقد وضعت هذه الإرساليات أثناء عهده أسس عملها ، تلك الأسس التى لم يكن من المستطاع بعد ذلك هدمها »[٢٨] فى ظل الحكومات العلمانية التى تدعمها القوى العلمانية الأوربية ، وتعمل على إزهارها وإنضاجها ، وقد ساعد على ذلك أيضا حالات الإحباط التى عانى منها الإسلاميون الغيورون ، الذين رأوا بأعينهم تغلغل الأوربيين فى المجتمع الإسلامى . بكل ثقلهم الاقتصادى والعسكرى ، بخطط مدروسة ذات نتائج حاسمة فى كل ما يقدمون عليه .

وجاء إسماعيل بعد سعيد ، فألغى المحاكم الشرعية ، وفصل بذلك بين المسلمين والخيط الباقى الأخير الذى يربطهم من الوجهة الرسمية بدينهم ، عندما أنجز قلم الترجمة برياسة رفاعة ، ترجمة القانون الفرنسى المدنى والجنائى إلى العربية ١٨٦٣ م[٢٩]» وفى هذا العهد بالذات طور المبشرون والإرساليات أفكارهم وجهودهم لتخدم أولا وأخيرا الفكرة الاستعمارية فى العصر الحديث ، وأخذوا يزكون أهدافهم بالثارات ، القديمة بين المسلمين والصليبيين فى أسبانيا ، أو بين الصليبيين والمسلمين فى الحروب الصليبية ، فنرى هانوتو الاستعمارى الفرنسى فى القرن التاسع عشر يقول : لا فرق بين حملة لويس التاسع الذى ينتمى

إلى أسبانيا بوالدته ، ليضرم نيران القتال فى مصر وتونس ، أو لويس الرابع عشر فى تهديده بالإيالات الإفريقية الإسلامية ، أو نابليون الأول » ولعل هذا هو الذى دعا الاستعمارى الإنجليزى بيترسون سميث أن يقول فى بداية القرن العشرين : « باءت الحروب الصليبية بالفشل ، ولكن حادثا خطيرا حدث بعد ذلك فقد بعثت انجلترا بحملتها الصليبية الثامنة ، وفازت فى هذه المرة ، ولهذا نجد فى الكتابات الغربية الدينية والسياسية معا الإشارة بعمل الصليبيين حتى إن حملة (اللنبى) على القدس أثناء الحرب العالمية الأولى تسمى فى الكتابات الغربية ، بالحملة الصليبية الثامنة أو الأخيرة »(٣١) .

وسار التبشير والاستعمار جنبا إلى جنب ، لنشر العلمانية وجعل هذه الشعوب الإسلامية تؤمن بعجزها عن تحقيق أى تقدم فى المجالات الاقتصادية والفكرية ، والاجتماعية والسياسية ، واستحالة تقدمها ، مادامت مصرة على التمسك بدينها ، واتهامهم بأن الدين هو السبب الحقيقى لتخلفهم . يقول هانوتو : « الدين الإسلامى يبعث فى الإنسان الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما ... وإن تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد ، لأن الإسلام معتقدهم يحول دون ذلك ... وأن كل حكومة انفصلت عن الشرق ، وسارت على منهاج أوربا

علما ومدنية نجحت »[٣٢] .

وفى هذه الأثناء بدأ يبزغ فى الأفق ضوء خافت ، منبعث من أحد الإسلاميين هو على مبارك ــ الذى خالف رفاعه فى بعض المواقف ، فرفاعة الطهطاوى (١٨٠٨ م ــ ١٨٧٠ م) الأزهرى الذى ظل متمسكا بعرى الدين ، وضع بين يدى الحاكم كافة السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية »[٣٣] . « فهذا الرجل العلمانى المقصد (والنص للدكتور عزت قرنى) محترم للدين وشريعته ، وموقر لشرائعه ، ومندد بالمظالم ، ولكنه موظف كبير عايش محمد على وإبراهيم وعباس وسعيد واسماعيل ، ورضى عنه معظمهم ، وأنعموا عليه بالرتب والتشريفات ، وألحقوها بإقطاعات هامة ، حتى ترك لورثته عند وفاته ما يزيد على الألف وستمائة فدان »[٣٤] ومن هنا لم يكن لرفاعة أن يقف مواقف لا يرضى عنها الحكام .

وعلى كل حال فقد نقل رفاعة عن الأوربيين رغبة فى التحديث ، وكان من الطبيعى أن تساعد هذه المترجمات التى نقلها رفاعة عن الأوربيين فى تقبل الأفكار العلمانية بعد ذلك . ولقد كان لرفاعة عذره ، فقد أرقته هموم كثيرة نتجت عن الإحساس بمدى تقهقر بلاده وانحطاطها ، وتخلفها عن ركب

الحضارة ، التى رآها فى فرنسا فى سنى شبابه ، وهى سنى التحمس والرغبة فى الإصلاح . وبالقدر نفسه كان يؤرقه كيفية وصول بلاده إلى الدرجة التى وصلت إليها هذه البلاد ولكنه لم يشأ أن يغضب أمير البلاد وولى نعمته ، فأعلن رأيه الذى أوضح فيه كيف نهضت أوربا ، ثم مضى لحال سبيله .

على أن الصورة كانت قد بدأت تأخذ شكلا آخر لدى على مبارك ، وهو المصلح الذى يلى رفاعة (١٨٢٤ م — ١٨٩٣ م) فهو أول الإصلاحيين الإسلاميين الذين حاولوا بطريقة منهجية أن يوائموا بين الإسلام وتقبله للعلم الأوربى ، وقد نثر آراءه هذه بين صفحات كتابه « علم الدين » الذى نشره عام ١٨٨٢ . وفيه يبين أهمية العلم ، وكيف أن نشأته كانت عربية إسلامية ، وأن الإسلام منبعه ، ومن ثم فان التجاوب والتآلف بين الإسلام والعلم دائم ومستمر ، وإن ضيعه أهله . فعلى مبارك يرى أن العلم هو الذى نقل الأوربيين من حالة التوحش والخشونة إلى درجات الكمال والسطوة والاعتبار ، وإلى نمو سبل الثروة وزيادتها ، وحصول التقدم فى الفلاحة والتجارة والصناعة والملاحة ولكنه يؤكد أن الفرنج ، وهم المالكون للعلم فى العصر الحديث ، والممسكون بناصيته

والمتحكمون فى أسبابه ونتائجه ، مدينون فى تقدمهم فى العلوم والصنايع إلى اختلاطهم بالمسلمين ، واطلاعهم على العلم العربى ... ويؤكد أنه « ليس فى أحكام الديانة الإسلامية ما يمنع من التقدم فى أى علم من العلوم النافعة دينا ودنيا . وأن الإسلام كان بالفعل سببا فى إحياء التمدن القديم ، وأنه الأساس الحقيقى ، والمنبع لما يسمونه بالتمدن الجديد المبتدع » .

أما ما حدث فى الإسلام من موانع عاقت التقدم عن مسيرته الأصلية فلا يرجع إلى بلاده وقصور فى عقول العرب ، ولا إلى تغيير فى طبيعة أرضهم وهوائها ، ولا إلى تغيير قوانينهم وعاداتهم فذلك كله لم يزل كما كان عليه من قبل ، وإنما يرجع إلى أمرين بارزين . أولهما : انحسار تعظيم العلم وأهله ، وثانيهما : انحراف خلف الأمة عن سيرة سلف الأمة بنبذهم مصالح الأمة العمومية ، وجريهم وراء شهواتهم الخاصة . وكان سلف الأمة لا يحصرونه فى الأحكام الشرعية والفنون العربية وإنما يتوسعون فيه ، ليشمل فن الفلاحة والملاحة والتاريخ والتجارة والعمارة والطب ، والحكمة والفلسفة والرياضة ... ويقيمون على أحكام سنن شريعته ، وعلى أساس السعى فى المصالح العمومية »(٣٥)

إذن بدأ على مبارك ــ كمصلح إسلامى يعلن تقبله للعلم

الأوربى ، الذى هو أساسا مستمد من العلم العربى الإسلامى ، وهو لم يقل بأن منبعه عربى إسلامى ، من باب التفاخر بمجد السابقين ، ذلك التفاخر الذى يخدر أهله ، ويجعلهم يكتفون بتزيين مآثر ماضيهم ، ولا يحاولون بعث هذا الماضى المجيد أو إحيائه . ولكنه أراد أن يبين للمسلمين المعاصرين أن سلفهم عملوا على إحياء شأن العلم وأهله ، وأنهم وسعوا دائرته ، فلم يضيقوها ويجعلوها محصورة على علوم الشريعة ، بل ساوقوا بين علوم الدين والدنيا ، وجعلوهما معا علما إسلاميا ، ومادام الأصل كذلك فلمَ لا يعود المسلمون المعاصرون إلى سابق عهدهم ويسلكون مسلك سلفهم . حتى ينهضوا بمجتمعهم الإسلامى بامتلاك أسباب العلم ووسائله .

على أن الذى وقع فيه على مبارك ، أو الذى لم يوصل أهدافه إلى حد الكمال ، أنه لم يختر طريقا مباشرا إلى أفهام المسلمين ، فظروفهم الثقافية كانت تؤكد أنهم فى مرحلة دنيا من مراحل المعرفة لا تسمح لعقولهم الصغيرة أن تستنبط هذه الأفكار أو تلتقط منثورها بين الأفكار الكثيرة الأخرى التى شملها كتاب « علم الدين » والتى غطت على هذه الأهداف النبيلة فكادت تخفيها عن الأنظار والعقول . فلم يلتفت إليها كثيرون من القاعدة

الجماهيرية الإسلامية العريضة ، ذات العاطفة الإسلامية الجياشة التى تبحث عن الطرق التى توصل إلى إعادة مجد الإسلام .

فعلى مبارك — وهو يتناول مسائل ضرورة تقبل المسلمين للعلوم الأوربية من منطلق إسلامى — لم يحاول أن يبعث أفكاره بطريقة عملية مباشرة ، بالانغماس فى فكر الجماهير والسيطرة عليهم ، بوضعهم فى أعماق قضيتهم المصيرية ، ولهذا لم تؤثر دعوته تأثيراً سريعاً فى الناس ، الذين لم يجتمعوا « على الأساس الذى ينبغى التركيز عليه أكثر من غيره فى عملية تحقيق الترقى أو التقدم ، ذلك أن الإسلام بإطلاق ، لايمكن إلا أن يكون ظاهرة مجردة تستعصى على الإدراك المباشر ، ولكى يتم إدراكها بصورة شخصية ينبغى أن تتحقق بشكل أو بآخر فى مغالبة محددة ، أو فعاليات متشددة ، يكون لها قوة دفع ملموسة تؤثر فى هذا الجانب ، أو ذاك من جوانب الحياة الفردية والجماعية للأمة »(٣٦) وهذا ماسيحدث باطراد هادئاً فى بادىء الأمر لدى محمد عبده ، ثم أقوى لدى محمد رشيد رضا ، ثم أعنف لدرجة مطالبة الحكومة بتوزيع الأرض وكفالة كل أفراد المجتمع اجتماعياً فى آخر النصف الأول من القرن العشرين وبالتحديد فى عام ١٩٤٨(٣٧) .

وقام أيضاً الأفغانى ثم محمد عبده يردان على مزاعم هؤلاء المبشرين فأخذ الأفغانى يدلل فى « رسالة الرد على الدهريين » على تهافت هؤلاء الذين لايؤمنون بالخلق والبعث وينفون عامل القوة الإلهية فى خلق هذا الكون مؤكداً أن الإيمان يرقى بالإنسان ويساعده على تحقيق ذاته ، كما يساعده فى السيطرة على الكون ، وتطهيره من الفساد ، هذا ماقصده الأفغانى بهذه الرسالة فقد أراد أن يدلل على أن التقدم العلمى إذا لم يكن مشمولاً بالإيمان الدينى الذى يجعله فى خدمة الكون وعمارته ، لاوسيلة لتدميره ، صار بلاء على البشر لاوسيلة لإسعادهم . لأن العلم إذا ارتكز على ركائز الإيمان كان سبباً فى نشر الألفة بين الناس ، وتبادل المنافع والمصالح . « إذ لاريب فى أن الدين مطلقاً ، هو سلك النظام الاجتماعى ، ولن يستحكم أساس التمدن بدون الدين البته » .(٣٨) وإن العلم الصحيح الذى يمكن للآدمى أن يصل إليه هو العلم الذى به ينتهى الإنسان عن الفساد فى الأرض ، وسفك الدماء » .(٣٩)

فالأفغانى كما نرى لايرفض العلم التطبيقى الوافد من الغرب ، ولكنه يرفض أن يسلك به طريقتهم ، التى تهدف من تسخير وسائل العلم ، أن تحقق لهم — رغباتهم فى السيادة على العالم ، والتسلط على شعوبه الضعيفة ، ولو أدى ذلك إلى تدمير كل من

يقف فى سبيل تحقيق رغباتهم الآثمة ، فى السيطرة والتسلط ، بينما العلم الذى ينشده للمسلمين ، هو ذلك العلم الذى يرتكز على ركائز إيمانية ، ويكون لخدمة الإنسان وعمارة الكون .

واستأنف الشيخ محمد عبده ، فى رسالة التوحيد الكلام عن الإيمان ، وتوحيد الخالق ، مبيناً للناس كيف أن فكرة التوحيد تدعم رقى المسلم فى أموره الدنيوية ، قبل الأخروية ، فهى تحرر المسلم من داخل نفسه فتلهمه بأن العبودية لله وحده ، هى كمال الحرية ، ومن خارج نفسه بنبذ ألوان الظلم والاستعباد ، وطلب الحرية والاستقلال .

فى هذه المرحلة بدأ الإسلاميون يجعلون لأفكارهم أهدافاً محددة ، ويوجهونها للمسلمين توجيهاً مباشراً . ويبلورونها فى نقاط محددة وواضحة هى :

١ ــ رفض الدعوة الإلحادية العلمانية .
٢ ــ إن التوحيد هو كمال الحرية ، لأنه عبودية لله وحده ، لالسواه ولا لشريك معه من آلهة البشر ، سواء كان من المستعمرين الغاشمين أو الحكام المستبدين .
٣ ــ إن الإسلام هو دين العلم والمدنية ، يدعو للأخذ بأسبابهما ليصل بالمسلمين المعاصرين إلى أعلى الدرجات

وأرقاها . كما يدعو للاجتهاد .

٤ ــ إن العلم يجب أن يرتكز على ركائز الإيمان ، بل هو نابع من الإيمان ، وإلا صار علماً مدمراً (كما حدث فيما بعد فى إلقاء القنابل النووية على هيروشيما وناجازاكى) .

ومع جهود الأفغانى ومن بعده محمد عبده ومدرسته ، فقد تفوق هانوتو وشيعته لأن خطتهم كانت واضحة ومدروسة ومستمرة ، بينما كانت خطط الإسلاميين وليدة الأحداث تظهر كردود فعل وقتية ، ثم تخبو وتختفى كأن لم تكن .

ونجحت خطة الاستعمار والمبشرين فى فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية بدون جلبة ولا ضوضاء »[٤٠] وقد بلغت هذه الخطة أقصى مداها على يد كرومر فى مصر ولأن مصر هى أكبر الدول الإسلامية العربية ، فقد كان تأثيرها بالتالى كبيراً ، على الأمة الإسلامية ، ساعد على ذلك رغبة مستترة من هذه الأمم المغلوبة فى « تقليد الأمم الأوربية الغالبة » ، وهو تقليد جرهم إلى الإعجاب بالأوربيين والاستكانة لهم ، والرضا بسلطتهم عليهم ، وبذلك تحولت صبغة الإسلام فيهم ، والتى كان يجب أن تحرك فيهم التطلع إلى القوة والغلبة ، لاإلى صبغة الخمول والاستئناس إلى الحكم الأجنبى »[٤١] .

الجامعة الإسلامية :

وكانت مسألة قتل الجامعة الإسلامية ، من الخطط التى أعد لها الاستعمار ، ولقد انتهز الاستعمار الضعف الحال بالدولة العثمانية ، والأمة الإسلامية وكتل اللورد كرومر جهوده فى مصر ، وبدأ حملته فى آواخر ١٩٠٦ منددا بالمصلحين الإسلاميين الذين أظهروا ميلاً إلى إيقاظ العالم الإسلامى . ومما جاء بتقرير كرومر الذى رفعه لحكومته : « إذا قلنا إن الحركة الوطنية المصرية الحالية ليست إلا حركة الجامعة الإسلامية لم يطابق قولنا الواقع من كل وجه ، ولكن لاريب فى كون هذه الحركة مصبوغة صبغاً شديداً بصبغة الجامعة الإسلامية .

ويوضح كرومر أن المقصود بالجامعة الإسلامية بوجه الإجمال ، اجتماع المسلمين فى العالم كله على تحدى قوات الدول المسيحية (لم يقل الدول الاستعمارية الأوربية) ومقاومتها فإذا نظرنا إليها من هذه الوجهة ، وجب على كل الأمم الأوربية ، التى لها مصالح سياسية فى الشرق أن تراقب هذه الحركة مراقبة دقيقة .

إن الحركة الإسلامية تستلزم السعى فى إصلاح أمر الإسلام

على النهج الإسلامى وبعبارة أخرى السعى فى القرن العشرين فى إعادة مبادىء وضعت منذ أكثر من ألف سنة هدى لهيئة اجتماعية فى حالة الفطرة والسذاجة ... مناقضة لأهل هذا العصر ، ومنها مايتضمن أمراً أهم من ذلك كله ، وهو إفراغ القوانين المدنية والجنائية والمالية فى قالب واحد ، لايقبل تغييراً ولا تحويراً ، وهذا ماأوقف تقدم البلدان التى دان أهلها بدين الإسلام »(٤٢)

وتصدى الشيخ رشيد رضا آخر الإسلاميين من مدرسة المنار يرد على كرومر وكان فى رده توضيح أمور هى :

١ ــ إن الجامعة الإسلامية بالمعنى السياسى صارت أمراً يكاد يكون تحقيقه ميئوساً منه فقد كان الإسلاميون فى مصر يدعون لها فى ظل الدولة العثمانية ولقد نجح العلمانيون فى زلزلة أركان الدولة العثمانية . وقد أحس الإسلاميون فى مصر بذلك . ومن هنا فقد بدأوا يوجهون جهودهم وجهة أخرى منبثقة من الدين أيضاً . وكان الشيخ محمد عبده أسبق إلى فهم هذه الوجهة من تلميذه الشيخ رشيد رضا . ولهذا لما أراد هذا الأخير أن يتكلم فى الخلافة ، ويكتب عن حقوق الإمام قبل الأمة ، أو حقوق الأمة قبل الإمام ، نصحه بألا يوجه نظر المسلمين إلى هذا

الموضوع ، كما نصحه بأن يوجه أنظارهم إلى القرآن « لأن المسلمين ليس لهم اليوم إمام إلا القرآن »(٤٣)

وكان الشيخ محمد عبده قد مات قبل أن يعلن كرومر تقريره بعام ، وفهم رشيد رضا خبث كرومر ، وما يريد أن يوقع به المسلمين ، فرد عليه قائلاً : « إن اللورد كرومر قد توهم أشياء لاوجود لها على الإطلاق ، فالجامعة الإسلامية بالمعنى الذى يفهم من كلامه لاوجود لها فى الأرض وإنما يوجد فى المسلمين دعوتان :

١ ــ دعوة تحصر فى ترك البدع ، والجمع بين الدين والعلم والمدنية .

٢ ــ دعوة وطنية سياسية تنحصر فى مطالبة أصحاب السلطة فيهم بما يرقى ببلادهم ويحفظ حقوقهم فيها .

إن الباحثين فى أمور الشرق من الأوربيين عارفون بمرامى طلاب الإصلاح من المسلمين وأنهم يريدون الرجوع بالدين إلى ماكان عليه فى أول نشأته ، غير متقيدين بما وضعه العلماء من التقاليد التى تحول دون مجاراة أهل هذا العصر ، بل سابقتهم فى علومهم ومدنيتهم لأنهم يرون أن الكتاب والسنة يحثان على ذلك ،

ولا يحولان دونه ، والمقلدون للفقهاء يرون غير ذلك »[٤٤]

وقد يفسر كلام الشيخ رشيد على أن الإسلاميين أرادوا العودة إلى القرآن ، ليستلهموا من نصوصه ، مايقوم عوج الحياة ، فإذا استطاعوا أن يربوا المسلمين على هذه الطريقة استطاعوا أن يجعلوا من المسلمين أمة واحدة قوية الرأى والإرادة ، فيها الرجال الذين يستطيعون أن يحموا حوزتها ، والمفكرون والعلماء الذين يبنون نهضتها .

وقد يكون هذا صحيحاً ، ولكن مهما قيل من أقوال وتفاسير ، فقد استطاع الاستعمار أن يضيق الدائرة السياسي التى كان يدور فيها الإسلاميون وأن يجعلهم يتركون الدعوة إلى الجامعة الإسلامية ، ويتفرغوا لمشاكلهم الوطنية . وهو ماعبر عنا الشيخ رشيد رضا « بالدعوة الوطنية السياسية » ولم تفتأ هذه الدعوة إلى الوطنية أن علا صوتها شيئاً فشيئاً من تركيا ذاتها مركز دولة الخلافة العثمانية الإسلامية . فهم أول من ساعد على تمزيق دولة الخلافة وعمل له . ولقد مهد ذلك التطور — إلى الأدنى — من فكرة الجامعة الإسلامية إلى فكرة الوطنية إلى حدوث أمرين خطيرين ، وكان كلاهما ذا قوة سلبية مدمرة للأمة الإسلامية .

أولهما : أن وقف المسلم العربى فى وجه المسلم التركى فيما بعد فى الحرب العالمية ، التى أدارها الاستعمار الغربى خصمهما معاً .

وثانيهما : أن المثقفين العرب المسيحيين وتبعهم المسلمون (وكلهم علمانيون) رفعوا أصواتهم يرددون أن الوقت لم يعد مناسباً لرابطة إسلامية ، مبرزين ذلك بموقف الأتراك الذين كانوا يدعون أنهم حماة الخلافة الإسلامية من الحركة الإسلامية . ولقد كانت الشعارات العلمانية التى رفعوها مناسبة لظروف وقتها ، وكانت لاتعوزها التبريرات لأن العثمانيين حماة المسلمين بالأمس ، لم يستطيعوا وقف الزحف الأوربى على بلاد المسلمين العرب .

وفى الحقيقة فقد تشابكت القضايا السياسية وتعقدت ، سواء فيما يختص بالحركة الإسلامية ، أو العربية أو الوطنية القومية ، هذا من جانب المسلمين الحائرين الضعفاء ، وفى الجانب الآخر القوى تبلورت خطط السيطرة الاستعمارية ، والصهيونية العالمية والسعى الاستعمارى الصهيونى لقتل الأمة الإسلامية ، واحتلال فلسطين وبيت المقدس وكان من العوامل التى ساعدت

الاستعمار على اتخاذ هذه الخطوات ، ضعف الحكومات الحاكمة ، والشعوب المحكومة على حد سواء .

كرومر والتغريب :

كانت الظروف تسير ضد رغبة الإسلاميين ، بينما أصبحت الأحوال لصالح العلمانيين وكانوا يزدادون قوة يوماً بعد يوم ، وفى المقابل ازداد الإسلاميون ضعفاً . وكان الاستعمار وراء العلمانيين دائماً يقوى مركزهم ويعد لهم ، بقيادة اللورد كرومر ،الذى أخذ يغير فى خططهم ويبتكر حتى جعل مبادرة تنفيذها بيد المسلمين أنفسهم بإحداث التغيير الاجتماعى والثقافى والسياسى فيهم ، وبدأ خطته بالتغيير الاجتماعى بإعداد طبقة الباشوات الفلاحين الوطنيين ، بدلاً من طبقة الباشوات الجركس والأرناؤوط وغيرهم .

ومن هذه الطبقة نشأت طبقة الباشوات المثقفين المتفرنجين من أبناء الباشوات الفلاحين وكانوا هم أنفسهم طبقة الباشوات الحاكمين والحراس على طبقتهم الاجتماعية الجديدة أمثال : سعد زغلول باشا ولطفى السيد باشا وعلى عبد الرازق باشا ومحمد حسين هيكل باشا ، ويلحق بهم طه حسين باشا . وكان الذى

فعله كرومر الإنجليزى فى مصر (المشرق العربى الإسلامى) قد سبق إليه الفرنسيون فى تونس (المغرب العربى الإسلامى) بدون جلبة ولا ضوضاء كما قال هانوتو ، الذى بدأ خطته بالتظاهر باحترام النظام السابق على الفتح الفرنسى بصيانة القوانين والعادات من المساس والمحافظة على مركز (الباى) حاكم البلاد . يقول هانوتو : « وقد بالغنا فى ذلك بحيث تمكنا بواسطة ماأدخلناه من التعديلات الطفيفة شيئاً فشيئاً ، وأجريناه من المراقبة على الأمور الإدارية والسياسية من التداخل فى شئون البلاد ، والقبض على أزمتها بدون شعور من أهلها وقام بإعمال هذا التغيير والتبديل ، وهذا النسخ والتحويل ، عدد قليل من الموظفين من التونسيين » ويستطرد هانوتو قائلاً : « إذن يوجد الآن بلد من بلاد الإسلام قد انفصم الحبل بينه وبين البلاد الإسلامية الأخرى الشديدة الاتصال ببعضها ، إذن توجد أرض تنفلت شيئاً فشيئاً من مكّة ومن الماضى الإسلامى ، أرض نشأت فيها نشأة جديدة أنبتت فى قضائها وإدارتها وعاداتها ، وأخلاقها ، أرض يصح أن تتخذ مثالاً يقاس عليه وأنموذجاً ينسج على منواله ، ألا وهى البلاد التونسية »[٤٥] .

فالخطة — كما يتضح من كلام هانوتو — فصل المسلمين عن

الإسلام ، وعن ماضيهم الذهبى ، وعن مكة رمز هبوط الرسالة الإسلامية من السماء على نبى الإسلام ﷺ ، وإنشائهم إنشاء آخر بتغيير كل مقوماتهم الدينية والأخلاقية . وكل نظمهم الدنيوية المنبثقة عن الإسلام .

وفعل كرومر الشيء نفسه فى مصر ، فهو يقول على سبيل المثال : « على الإنجليز مهمة كبرى هى محاولة ربط مصر بهم ، وصبغها بصبغتهم ، أو الصبغة التى ترضى فيما بعد أن يكون البلاد جزءاً لايتجزأ من الدولة البريطانية كل هذا دون إثارة إحدى الدول ، ودون عنف ، ودون اتخاذ إجراءات قاسية ، ولكن بهدوء وصبر وطول أناة »[٤٦] وبالمصريين المتربين تربية أوربية »[٤٧] .

وسارت الخطة الاستعمارية التبشيرية على مداومة غرس مايريدون فى عقول المصريين وعلقت هذه الأفكار ثم تمكنت من عقول المسلمين وتركزت فى أذهانهم ، واتخذت طابع الحقيقة التى لاتمارى .

ولم تقتصر المسألة على خطط هانوتو الفرنسى وكرومر الإنجليزى ، فقد كانت الأجهزة ، التبشيرية ، تعضد هذه الخطط وتدعمها خاصة الأمريكية منها وكان الطابع التبشيرى الأمريكى

يعتمد على تضافر المسئولين الحكوميين ورجال المال ، ورجال الدين المسيحى ، وكان شعارهم جميعاً « ضرورة تبشير العالم كله » والذى نقش هذا الشعار فى أذهان الصليبيين هو « جون رالى موط » الذى لم يكن من رجال الدين المسيحى ، ولكنه مؤسس الاتحاد المسيحى العالمى للطلبة عام ١٨٩٥ ورائد الحركة المسكونية ، جال بين مختلف القارات ، وركز على مصر ، ورأس مؤتمر الإرساليات التبشيرية سنة ١٩١٠ ورأس مجلس الإرساليات العالمى الذى تأسس فى سنة ١٩٢١ ومؤتمر القدس سنة ١٩٢٨ والهند سنة ١٩٣٨ ، ولما تأسس مجلس الكنائس العالمى أختير ليكون رئيسه الفخرى ، وهذا الرجل نفسه صاحب الفضل فى أن يجعل السبق للكنائس الأمريكية فى مجال التبشير حتى أصبح عدد المبشرين الأمريكيين ٢٧,٧٣٣ من ٤٣,٠٠٠ مبشراً مسيحياً يعملون فى أنحاء العالم طبقاً لإحصاء سنة ١٩٥٨ »[٤٨] .

وكان أهم أهداف هؤلاء المبشرين الذين يحركهم علمانى أمريكى لا ينتمى أصلا إلى رجال الكنائس ، والذى اختاره مجلس الكنائس العالمى ليكون رئيسه الفخرى ، عملا بخطة استعمارية هى — إبعاد الدين عن الحياة فى البلاد الإسلامية من كل مشاركة أو اقتراب فى الحياة السياسية أو الاجتماعية أو

الاقتصادية . أى عزل الدين عن حياة المسلم عزلا تاما ، وفصم المسلم بالتالى عن حقيقة دينه ، كان هذا هو همهم الأول قبل اهتمامهم بالتبشير للدين المسيحى . لأنهم أنفسهم صاروا ينظرون إلى الدين المسيحى نظرة مغايرة ، من بداية القرن العشرين ، حيث انهارت بعض مقومات الحضارة الأوربية القومية ، فقد هزمت اليابان الوثنية روسيا الأورثوزكسية المتعصبة فى حرب ضروس بدأت ١٩٠٤ وانتهت ١٩٠٥ ، ثم نجحت الثورة المادية اللادينية فى روسيا فى هزيمة الأرثوزكسية الروسية القيصرية مرة ثانية وقضت عليها نهائيا ١٩١٧ .

ومن هنا بدأت القوى التبشرية تحدث تغييرا جذريا فى مخططاتها وفى المناخ اللاهوتى المسيحى ، خاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية ، التى أعلنت عن إله الغرب الجديد الذى أطلق عليه « العلمانية » secularism والجديد فى الأمر هو الإعلان عن عبادة هذا الإله ، الذى كان يعبد فى الخفاء ، فصار يعبد جهارا .

وشكلت الولايات المتحدة الأمريكية لجنة برئاسة الفليسوف الأمريكى (و . ارنست هوكنج) وكان كل أعضائها ليسوا من رجال الدين ، قاموا برحلات واسعة فى آسيا وأفريقيا ــ حيث

يوجد المسلمون ــ لحساب جمعيات الإرساليات الأمريكية ، وخرجوا بتقرير يؤكد : أن الرجل الغربى أصبح أقل ثقة فى وحدانية الإنجيل المسيحى ، وليس من حق الرجل الغربى أن يفرض على ورثة الأديان الكبرى الأخرى شيئا قد يثبت فى النهاية أنه ليس أكثر من خرافة غربية A western mythومن ثم فقد بدأ فى أوساط اللاهوت هجوم صريح على الألوهية بكل مظاهرها فى المسيحية ، وانتشر تيار فكرى يجعل نقطة بداية موت الإله ، وينادى بمسيحية لا دين فيها(٤٩) .

وكانت فلسفة نيتشه الألمانى (١٨٤٤ ــ ١٩٠٠)قد سرت فى المجتمع الغربى ، والتى تلخصها رؤية نيتشه فى أن الأسطورة المسيحية لم تعد قابلة للتصديق ، وأن هذه الأسطورة كان يجب أن يعترف دعاة المسيحية صراحة أنها فقدت أخيرا قوتها المخلصة(٥٠) .

وبدأ العلمانيون الغربيون يتجهون نحو العالم غير المسيحى ، بدين مؤلف من تعاليم من صنع البشر ، لأن فيها دعوة إلى التسامح والحرية والمساوة ، وإعلاء شأن العقل ، وبعض التعاليم الإنسانية الأخلاقية التى تجمع البشر من كل لون وعرق ودين على اعتناقها ، والتخلق بأخلاقها .

عوامل مساعدة :

كان من أهم العوامل التى ساعدت على نشر هذه المبادىء فى الشرق الإسلامى عوامل مساعدة ، بلا شك . يأتى فى مقدمتها الصحافة اللادينية الموالية للاستعمار والناطقة بلسانه . وجهود الصهيونية . ونشر الأفكار والنظريات التى من شأنها أن تزرع القلق وتخلخل الثقة من كيان المتدين كالماسونية والدارونية وغير ذلك من العوامل الهدامة للعقيدة الدينية .

أولاً : الصحافة الموالية للاستعمار :

كان للصحف الموالية للاستعمار دور كبير فى تربية الشعب على الطريقة التى أرادها المستعمر . إذ كانت تعمل دائبة على إقناع الناس بضرورة احترام المحتلين ، لما نالت مصر — بزعمهم — من خير على أيديهم ، ويطالبونهم بالارتباط بالحياة الأوربية ، وضرورة أن يتعلم أبناؤهم على الأساتذة الأوربيين(٥١) .

قام بتنفيذ مخطط الاستعمار فى هذا الميدان — الصحفيون

السوريون المسيحيون وفى مقدمتهم فارس نمر ، ويعقوب صروف وشاهين مكاريوس ، الذين أسسوا دار المقطم للصحافة وأسموها دار المقطم ، لأنه الجبل الذى قدت منه الأحجار التى بنيت منها الأهرامات .

وقصدوا بذلك تذكير المصريين بمجد الفراعنة ، لا بمجد الإسلام(٥٢) .

وأصدر أصحاب دار المقطم ثلاث صحف كانت كلها تخدم أغراض الاستعمار السياسية والاجتماعية والثقافية . وهى :

١ ــ مجلة المقتطف العلمية ١٨٨٥ .
٢ ــ مجلة اللطائف الأدبية ١٨٨٦ .
٣ ــ صحيفة المقطم السياسية ١٨٨٩ .

وقد تربى أصحاب المقطم الثلاثة فى أكبر مدرسة تبشيرية فى الشرق فى هذا الحين ، وهى الكلية الأمريكية فى بيروت ، واقترن أحدهم وهو فارس نمر عام ١٨٨٨ بابنة قنصل انجلترا بالإسكندرية ، وسافر إلى انجلترا واجتمع بكبار السياسيين الإنجليز ، وشرب أفكارهم قبل إصدار جريدة المقطم بعام ــ ليبثوا فيه الأفكار التى يجب أن ينفثها للمصريين(٥٣) .

نهجت مجلة المقتطف مجلتهم العلمية ، خطة هدم الصورة الشامخة لعلماء ومفكرى وقادة المسلمين ، ومسخها ، أو على الأقل إظهارهم بمظر الشخصيات غير المتفوقة فهى تقارن بين أولئك وبعض الشخصيات الإنجليزية ، بحيث تجعل نتيجة المقارنات دائما لصالح الإنجليز ، فتقارن على سبيل المثال بين صلاح الدين الأيوبى ، وريتشارد قلب الأسد ، وبين أبى العلاء المعرى ، والشاعر الإنجيزى ملتون ، وبين ابن خلدون والفيلسوف الطبيعى الإنجليزى هربرت سبسنر .

ويمكن نقل جزء من أحد هذه التعليقات لتوضيح مقصدهم فى إثبات أن الشخصيات الإنجليزية ، موضع المقارنة ، تتفوق على نظائرها من الشخصيات الإسلامية ، فيقول فى مجال المقارنة بين ابن خلدون وسبنسر : إن أكثر المواضع التى طرقها ابن خلدون ، طرقها سبنسر أيضا ، ولكن معارف البشر قد نمت فى هذا العصر ، وزادت زيادة بالغة ، ولذلك نرى الموضوع الذى كتب فيه ابن خلدون صفحة كتب فيه هربرت سبنسر فصلا أو كتابا كبيرا(٥٤) .

ثم جائت مجلة اللطائف ، لتحمل راية الإلحاد الذى مهددت له شقيقتها مجلة المقتطف ، وكانت أول مجلة جاهرت بنشر التعاليم

السرية الماسونية فى مصر .

وبهذا تم لهم ما أرادوا زرعه من الإلحاد فى مصر .

أما المقطم منذ كانت الناطقة بلسان حال الإنجليز فى السياسة والاقتصاد وتعويد المصريين على تقبل كل ما هو غربى ، وترسيخ الإيمان به ، والاعتقاد فيه وفى خيره الذى عم البلاد .

إن مسيحى الشام قد بذروا البذور على أساس الضرورة والمصلحة ـــ بزعمهم ـــ أى لأن مصلحة المصريين تحتم عليهم أن يرتبطوا بالغرب ، وأن يأخذوا بكل ما يقدمه الأوربيون من خير للمسلمين ، ثم انتقل هذا الرأى إلى المسلمين وانتشر بينهم ، فى صورة أخرى هى مبدأ التوفيق بين « الإسلامية والأوربية » الذى استخدمه الصحفيون المسلمون بعد الصحفيين المسيحيين ، ليكون ذريعتهم فى تملق الاستعمار ، والتعاون معه والدعوة إلى مبادئه .

كان للإنجليز معاونون مهرة من مسيحى الشام ، ثم من المصريين المسلمين الذين تربوا على موائدهم ، ودعوا بدعوتهم ، وحاولوا إقناع جمهور المسلمين أن لانجاة لهم إلا بالاعتماد على الإنجليز خاصة والأوربيين عامة ، حتى تكون رأى عام ، يرى

أنه لا ثمة خطر على البلاد من هذا التقييد ، بل على العكس ، يكمن فيه سر تقدم البلاد ومدنيتها ، وتطالعنا إحدى الصحف بمجموعة من المقالات تعنونها بآيات من القرآن الكريم ، لتخدم بها أغراض المحتلين . أما هذه المقالات :

١ ــ والله لايستحى من الحق . (الأحزاب : ٥٣)
٢ ــ إن الله يأمر بالعدل والإحسان . (النحل : ٩٠)
٣ ــ اعدلوا هو أقرب للتقوى . (المائدة : ٨)
٤ ــ ما فرطنا فى الكتاب من شيء . (الأنعام : ٣٨)

ومما جاء فى المقال الأول : أن عقلاء الأمة والخبيرين منهم بأغوار السياسة لا يكرهون احتلال الإنجليز لا حبا فى ذاتهم ، بل لما يرونه من المنافع لبنى جنسهم ، مما يحصل بأيدى الإنجليز ، ودفع المضرات التى لا يمكن دفعها بدونهم(٥٥) .

ولقد أثرت هده النزعة الجديدة فى الصحافة المصرية التى يحررها صحفيون مسلمون ، فبعد ربع قرن من هذه الدعوة للمصريين بضرورة موالاة المحتلين الغربيين ((للمصلحة) نادى أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد باشا ، بضرورة نبذ الإسلام والمسلمين (للمصلحة) أيضاً . ففى يناير ١٩١٢ ينادى لطفى السيد فى (جريدته) بنبذ فكرة الإسلامية نبذا تاما وعدم معاونة

بعض الغيورين من المسلمين الذين بدأوا فى جمع المساعدات لأشقائهم الليبيين الذين وقعوا تحت الاستعمار الإيطالى مدعيا : أن الحركة الحاضرة بمصر الموجهة لإعانة الدولة العثمانية على حرب إيطاليا ، قد ظهرت بشكل الجهاد الدينى أو الدعوة إلى الجهاد الدينى « وأن هذا خطأ ضار بمصر »(٥٦) .

ثانياً : الصهيونية :

ومن الأسباب التى يمكن أن تضاف إلى ما ذكرنا ، خطط اليهود لامتلاك فلسطين وإنشاء دولتهم عليها . بمساعدة الاستعمار . وكانت قد أنشأت لها جرائد ومجلات فى مصر تدعو وتمهد لهذا الاحتلال ، مثل :

١ ـــ جريدة الحقيقة ١٨٨٩ .

٢ ـــ مجلة الزراعة ، وتعنى بالزراعة فى الظاهر فقط ، ولكنها تدعو فى الحقيقة ، لإنشاء الوطن القومى اليهودى فى فلسطين عام ١٨٩٠ .

٣ ـــ مجلة نهضة إسرائيل عام ١٨٩٠ .

ولم يكن غريبا فى هذا الجو أن تبدأ الدعوة لإنشاء الكيان الصهيونى فى مصر ، قبل انعقاد مؤتمر بال عام ١٨٩٧ الذى أقر اعتبار فلسطين وطنا لصهاينة اليهود ، ومؤتمر ١٩٠٧ حيث

وقعت وثيقة كامبل ــ بارمان وفيها تعهدت الإمبريالية العالمية بحماية الصهيونية ومساعدتها ، وقبل عام ١٩٢٧ الذى اعترفت فيه سلطات الانتداب البريطانى على فلسطين بمشروعية وجود المنظمات اليهودية ، وقبل عام ١٩٣٧ حيث قامت لجنة بيل البريطانية بتقسيم فلسطين ، وتسليمها اليهود وإنهاء الانتداب البريطانى .

كان هذا الذي فعله الاستعماريون اليهود ، كان صداه فى مصر يزلزل كيان الشباب وبين لهم مدى الضعف الإسلامى فى مواجهة قوى الاستعمار والصهيونية ، الذين جمعتهم المصلحة على إذلال المسلمين فاليهود سيمنحون وطنا قوميا ، « والأوربيون يأملون أن ينفذوا من هذا السبيل بمشاريعهم الاستعمارية إلى العرب المسلمين »(٥٧) .

ولقد تسبب استيطان اليهود لفلسطين على تحطيم كيان المسلم المعاصر ، وإشعاره بالإحباط ، وإضعاف طموحه ، وتفتيت فكره ، وانقسام نفسه على نفسه ، مما سهل على الأفكار الغربية أن تغزو أعماق نفسه الممزقة وتنال منه كل ما تريد .

ثالثاً : الماسونية :

دخلت الماسونية الشرق الإسلامى قبل دخول الاستعمار البريطانى العسكرى وقد نشأت فى أوربا على دعائم يهودية لتفويض سلطة البابوات والملوك ثم أيدتها الثورة الفرنسية لأنها حملت شعار« دهرية الحضارة » « لا السلطة الدينية .. وكانت للماسونية الأثر العظيم فى الانقلابات السياسية فى أوربا ، ومنها الثورة الفرنسية واليهود هم زعماؤها وهم أكثر الناس انتفاعا بها »(٥٨) .

وقد نشرها الإفرنج وأعوانهم المتفرنجون فى مصر والبلاد الإسلامية فى القرن التاسع عشر ، وكان من بين أعضائها خديوى مصر وجمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، ثم انفصل الأخيران عنها ، ولكن أمرها استشرى فى مصر مع الاحتلال البريطانى ، وكان أكبر العاملين على نشرها شاهين مكاريوس أحد أصحاب المقطم ، وصاحب امتياز مجلة اللطائف التى أنشئت ١٨٨٦ لتكون أعلى أبواق الدعاية للماسونية والإلحاد فى مصر . وكانت أول جهاز إعلامى يجاهر بنشر التعاليم الماسونية والإلحادية فى مصر .

وعملت الماسونية على أن تكون أعضاؤها من كافة الأديان

والملل المختلفة ، ولم يكن الهدف من ذلك تهيئة الجو للتسامح الدينى ، ولكن المقصد كان تمييع فعل الدين فى النفوس ، وقتل حرارته فى نفوس معتقديه ، نعم كان هذا هو المقصد الأول ، مهما حاولت أن تتخذ من وجود معتنقى الأديان المختلفة فى هيئتها « برهانا على أنها جمعية أدبية شريفة المقاصد ، لا تتعرض لدين ، ولا لسياسة ، فهى تضم من المسلمين والمسيحيين واليهود الجم الغفير »(٥٩) .

ولقد وقع المفكرون الإسلاميون فى براثن الماسونية ، كالأفغانى ، ومحمد عبده وحتى عندما كشفوا أمرها لم يستطيعوا أن يواجهوا خطرها على فكرة الإسلامية ، بل إن أغرب الأشياء أن الأفغانى الذى خلع نفسه من عضوية المحفل الماسونى الاسكتلندى لأنه لم يعضده فى قضاياه السياسية ، أنشأ محفلا وطنيا للشرق الفرنساوى ، ولكن الإنجليز عاقبوه ، « إذ لما بلغ محفل جمال الدين إلى هذه الدرجة من الأهمية والتأثير داخل الخوف قنصل انجلترا العام... وأرهب الخديوى (توفيق) فأصدر أمره بإخراج الأفغانى من القطر المصرى ١٨٧٩ »(٦٠) .

وعندما هاجم عبد الله النديم دعاة الماسونية فى مصر ، وهم

أصحاب دار المقطم بقوله : كيف يرجى الصدق والإخلاص ممن خانوا وطنهم وسلطانهم وأهلهم ، وكانت بلادهم أولى بالخدمة ، وأقرب الحوادث منا وجود أحد الأجراء (أحد عملاء الإنجليز) خطيبا فى محفل من محافل بيروت الماسونية ، يحرض فيه الناس على نبذ الطاعة السلطانية ، والانحياز إلى الغير »(٦١) .

وقد عوقب النديم أيضا بأن وضع تحت الرقابة ، وأغلقت مجلته ، وطورد حتى داهمه الفقر والجوع ، مما أدى به إلى الإصابة بذات الرئة والموت .

وتركت الماسونية اللادينية أثرا خطيرا فى أفكار المثقفين وعلى حد قول الشيخ رشيد رضا : « فلم يكن لها من ثمرة إلا إعداد النفوس لفصل السياسة والحكومة من الدين ، والاستغناء عن الشرع بالقوانين والمؤاخاة بين المسلمين وغيرهم ، وموالاتهم لهم »(٦٢) .

ولا يخفى على أحد أن قصد المؤاخاة بين المسلمين وغير المسلمين المشار إليه ، هو قتل الحمية الدينية الإسلامية فى أعماقهم ، وبث الخلاف بين المسلم وأخيه المسلم ، الذى ارتبط به بآصرة الدين والعقيدة بما يمنونه من النفع الناتج عن التمسك بها .

رابعاً : الدارونية :

كانت الدارونية قد غزت الأوساط الثقافية الإسلامية منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وبلغت مبلغا كبيرا من الانتشار فى بداية القرن العشرين ـــ فى مصر ـــ وشغلت المثقفين النظريين (لا العاملين الذين تخصصوا فى علم الأحياء) وهذا يؤكد غزوها الجو الثقافى المصرى ـــ كأيديولوجية ، حتى كاد يظن أنها الأيديولوجية الجديدة الوحيدة التى يمكن أن تحكم طرق التفكير والاعتقاد ، وبلغ من طغيانها على الفكر الإسلامى ، أنها غزت كتب تفسير القرآن الكريم ، وسيطرت على بعض علومه فى هذه الحقبة ، وعرض لها تفسير المنار ، الذى يعد رائد التفسير فى العصر الحديث ، منذ بداية القرن العشرين ولا يزال حتى اليوم(٦٣) .

ونحن فى هذا المقام ـــ لا نناقش الدارونية من حيث أنها قضية علمية ، وإنما كمسألة فكرية ، أثرت على الأفكار لدى المسلمين منذ بداية القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين ، منذ عمل دارون على تحطيم نظرية الثبات فى الخلق ، والتى كانت سائدة فى عصره والتى تقول بأن كل نوع من الكائنات خلق على حده ، وفى صورة مستقلة ، وأخذ يؤكد أن الأنواع ليست من

أصول ثابتة ، وأن الأنواع التى تنتمى إلى فصيلة واحدة ، أو جنس واحد قد انحدرت مباشرة عن أنواع أقدم منها ، وغالبا ما تكون قد انفرضت ، وقد حدث هذا بنفس الطريقة التى خرج منها سلالات متنوعة من أنواع ذات أصل واحد ..

وكان أخطر ماجاء فى نظرية دارون على طريقة التفكير الدينى قوله :

إن النظام الذى نراه فى الطبيعة ليس نتيجة لتدخل قوة عليا خارجية ولكنه نتيجة للتوافق ، أو التكيف بين أعضاء الكائن الداخلية ، وبين ظروف البيئة التى يعيش فيها(٦٤) .

ثم إن دارون رأى أن الكائن فى تطور خلقى على مدار الزمان وأن هذا التطور قد يحدث تحولا فى الأجناس ، إلى أجناس أخرى وهذه الفكرة هى التى جرأت أحد تلاميذه أن يقول بفكرة انحدار الإنسان عن سلالات القرود ، وهذه الفكرة تخالف ما جاء فى القرآن عن الخلق .

ونظرية دارون تدل بلا شك — على كفاءة علمية ، ولكنها لم تعط حكما نهائيا يؤكد صحة الفروض التى افترضها ، وبهذا الخصوص يشير العالم والمفكر الفرنسى دكتور موريس بوكاى Mourice Bucaille إلى أن نجاح أفكار دارون لا يعود إلى

مساهمتها فى تقدم العلم وإنما لأنها استخدمت لغاية أيديولوجية معينة ، وهى تحطيم الكنيسة والتقليل من أهمية تعاليم الكتب المقدسة(٦٥) .

وبالفعل هزت نظرية دارون مجتمع المثقفين بعنف ، فعدوا رفض علماء الدين لهذه النظرية تدخلا مشينا من جانبهم ، من شأنه أن يوقف التقدم العلمى ، ويسيء إلى المؤسسات العلمية والتربوية المهتمة بدراسة النظرية .

أما دارون فقد ألقى على الناس بأفكاره ومضى ، وكان لا أدريا وكانت اللاأدرية agnosticism هى مبدأه الدينى ، فهو لم ينكر وجود الله ، ولكنه لم يكن يعتقد فى تدخل الإرادة الإلهية فى حوادث الحياة اليومية .

وانتقلت هذه الأفكار إلى الشرق الإسلامى ، مع بداية عهد الاحتلال الإنجليزى وأدت الدور نفسه فى زلزلة الفكر الدينى لدى الشباب المسلم ولقد وصف أستاذ هذا الجيل أحمد لطفى السيد ــ الذى كان قد استظهر حفظ القرآن الكريم ــ فى بداية حياته ــ شغفه بنظرية دارون ، وحرصه على قراءتها بمجرد التحاقه بمدرسة الخديوية الثانوية ــ فى السنة الأولى ــ حيث كانت ميسرة فى مكتبة المدرسة وكان فى مقدور كل طالب أن

يقرأها(٦٦) .

لقد نسى شباب المسلمين — حينذاك — وفى مقدمتهم الشاب أحمد لطفى السيد ما أشار إليه قرآنهم فى خلق الإنسان فى قوله تعالى :

﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ﴾ « التين : ٤ »

والآيه تحسم القضية ، فهى لم تشر إلى البداية الزمنية لوجود الإنسان على الأرض ، ولكنها تثبت أن الإنسان لم ينحدر من سلالة أدنى ، هذا فضلا عن أن دارون وغيره من علماء الأحياء لم يتمكنوا حتى الآن من ربط جميع حلقات الخلق فى الكائن الحى الواحد ، وأنهم لم يعايشوا هذه الكائنات إلا فترة زمنية يسيرة من حياة امتدت فى أغوار الزمان ملايين السنين .

والأمر قد يختلف مع المسيحيين ، فإن الذى أوقعهم فى حبائل دارون وتصديقة أن القصص التى وردت فى الكتاب المقدس عن أصل الحياة ونشأة الإنسان غير واقعية ، وتتنافر مع الحقائق العلمية — بينما لم يتدخل القرآن فى تفاصيل تؤرخ لبداية الوجود الإنسانى على الأرض ، كما أنه لم يعن بتدوين القوانين العلمية التى يمكن أن يطبقها الإنسان فى فترات متغايرة من تاريخه ليؤكد بها تفوقه . ولكن القرآن الكريم ذكر خلق الإنسان فى أحسن صورة

وذكر ما يمكن أن يكون ظواهر طبيعية لا تناقض بينهما ، وبين أحداث القوانين العلمية ، لإثبات قدرة الخالق ، وسيطرته على الكون .

أفكار أخرى :

كان يواكب المرحلة الداروينية ، حركة أخرى هزت أوربا فى القرن التاسع عشر ، تلك هى حركة الاشتراكيين التى بدأت بدفاع سان سيمون الفرنسى عن حقوق العمال ١٨٢١ ، ثم ظهور كتاب برودن ١٨٤٠ بعنوان : الملكية تعنى السرقة ، ثم ظهور كتاب رأس المال لكارل ماركس ١٨٦٧ .

ونادى هؤلاء الاشتراكيون بالمساواة التامة بين أفراد المجتمع وأعلنوا حقوق الإنسان وحقوق المرأة ، وقد انتقلت كل هذه الأفكار إلى مصر منذ نهاية القرن التاسع عشر . وغزت كتب التفسير ، تماما كما حدث لنظرية دارون[٦٧] .

وتصدى الإسلاميون فى هذه الحقبة للداروينية والاشتراكية ، فقد تصدى لهما مفسر المنار ، وكان هادئا هيناً فى تصديه للداروينية ، ربما لأنه لم يكن مسلحا التسليح الكافى لمواجهتها فاكتفى بأن يقف منها موقفا سلبيا ، فقال إن الدين لا يؤيدها ولا يعارضها[٦٨] ولكن اختلف الأمر فيما يتعلق بالاشتراكية ،

حيث كانت أدواته ومعداته بين يديه ، ولهذا كان دفاعه قويا مقنعا ، يلتمسه من نصوص القرآن الكريم ، لأن القرآن لم يترك بابا يصلح من حال الفقراء إلا فتحه أمامهم ، وأدخل لهم الخير منه ولقد اجتهد فقال إن الإسلام يضمن لكل مسلم كفايته من الزكوات المفروضة ، والصدقات المندوبة ، ومن كل وجوه الإحسان ، وإن الأغنياء ملزمون إلزاما وفرضا بأن يقوموا بحق الفقراء ، ويكفلونهم ، ويضمنون لهم الحياة الكريمة التى تليق بالإنسان ، إذا لم تقم الصدقات والزكوات بذلك . وهذا ما لم ولن تحققه الاشتراكية(٦٩) .

بداية القرن العشرين
دعوة إلى الانسلاخ الكامل عن الإسلام :

مهدت خطط الاستعمار والمذاهب التى ألمحنا إليها ، إلى تقبل الفكر العلمانى ، ثم الإيمان به ، وقد شهدت العشرينات من هذا القرن أعنف موجة ثقافية تعمل للانسلاخ الكامل عن الإسلام ، وقد تزعمها المثقفون المتفرنجون الذين تربوا تربية أوربية ، وتثقفوا بثقافة غربية فى معاهد العلم الإنجليزى والفرنسى : « وكان من الطبيعى أن يعود هؤلاء الشباب بعد تعليمهم فى فرنسا وانجلترا بآراء حديثة ، تتمثل فى التحرر الفكرى والتحرر

الاقتصادى ، وتتجه بأنظارها إلى هذه الدول الأوربية كمثل أعلى تحاول تقليده ، وأكملت هذه المجموعة من الجيل الناشىء مجهودات بعثات التبشير والبعثات العلمنانية التى كانت تعمل فى الإقليم منذ بضع سنوات . وأصبح اتجاه الجامعة الإسلامية بالنسبة إليها بعد اتجاها تقليديا أو قديما ، ويمثل حركة ترجع بالأمة إلى بضعة قرون إلى الوراء . وتزايد الشعور بفكرة وبشعور قومى حديث ... وكان يخفى وراءه زيادة نمو الطبقة الوسطى وزيادة ترابط مصالحها بالتجارة الخارجية »(٧٠) .

وهؤلاء كان قد مهد لهم منذ عهد الخديوى إسماعيل ، الذى مهد للانفتاح على أوربا ، وتحويل مصر إلى دولة أوربية ، وبالشكل الذى يريده الأوربيون أنفسهم ، وكان إسماعيل أكثر فهما لطبيعة الناس من أسلافه (باستثناء جده محمد على) فعمل على تكوين طبقة جديدة من الباشوات الفلاحين الوطنيين ، تختلف عن طبقة الباشوات الذين صَنَفَتْهُم الدولة العثمانية . يأتمرون بأمره ولا يعصونه وكان من هؤلاء :

١ ــ محمد شريف باشا الذى تقلد رياسة الوزارة .

٢ ــ محمود حمدى الفلكى وعين وزيرا للمعارف .

٣ ــ على باشا شريف رئيس مجلس شورى القوانين .

٤ ــ إسماعيل باشا الفلكى .

وكانوا همزة الوصل بين الخبراء الفرنسيين فى مصر فى النوادى والحفلات والجمعيات الخاصة ، وبين الخديوى إسماعيل ثم ابنه الخديوى توفيق ثم حفيده عباس حلمى الثانى .

ولم يؤثر عن هؤلاء وأمثالهم الانتماء فى أى شكل من الأشكال إلى الثورة العرابية(٧١) .

ولكن الظروف السياسية التى أدت إلى احتلال البلاد ، أحدثت تغيرا كبيرا فى وضع هذه الطبقة ، فالاحتلال الإنجليزى لم يشأ أن يقضى عليها .

ولكن شاء أن يعدها إعدادا جديدا يساير خططه المتجددة ، عملا بنصيحة اللورد كرومر الذى أكد : أن المسلم غير المتخلق بأخلاق الأوربيين ، لا يقوى على حكم مصر ، لذلك سيكون المستقبل للمصريين المتربيين تربية أوربية(٧٢) .

عمل الاستعمار الإنجليزى ــ إذن ــ على تأكيد وتدعيم الطبقة الجديدة ، لتكون أهم طبقة فى المجتمع ، واهتدى الإنجليز إلى رجلين قديرين من أكفأ رجالهم ليقوما بإعداد هذا العمل ، وهما وليم ويلكوكس وأرنست كابل : « وكان ويلكوكس يغنى من يشاء بغير حساب » على مافعله فى كتابه ، ستون عاما فى الشرق ... وصارت تلك الطبقة تعرف باسم أصحاب المصالح

الحقيقية(٧٣) ومن أبناء هذه الطبقة حكم مصر سياسيا سعد زغلول باشا وثقافيا أحمد لطفى السيد باشا .

وكان أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد ، الذى حفظ القرآن وجوده فى طفولته ، بدأ يدعو لدارون ، ويترجم السياسة لأرسطو ، وينادى بنبذ الإسلامية ، بل والعربية أيضا (العربية هنا الأمة العربية) لأن العربية هى قاعدة الإسلامية وركيزتها ، متعللا بأن المصلحة لن تعود على المصريين إلا بنبذها ، فعندما احتلت إيطاليا المسيحية ليبيا الإسلامية العربية ، جمعت مصر ستة آلاف جنيها مصريا ، ومثلها ذهبا ، وأرادت أن تقدمها إلى الأشقاء الليبيين ، كما أرسل بعض المصريين البعثات الطبية لإسعاف المنكوبين ، واشترك فى صفوف الليبيين بعض المجاهدين المصريين وفى مقدمتهم عزيز المصرى ، وعبد الرحمن عزام أخذ لطفى السيد يندد بهؤلاء البلهاء (على حد اعتقاده) الذين قدموا المساعدات لليبيا ، وفاجأ الناس بسلسلة مقالات فى الجريدة (وهى الصحيفة التى كان يصدرها ويملكها) بعنوان : سياسة المنافع لا سياسة العواطف ، ورأى فيها أن من مصلحة مصر نبذ الليبيين ، وعدم معاداة الإيطاليين بمساعدتهم ، وأن مصلحة مصر تناقض مصالح شقيقاتها العربيات .

وكان أسوأ ما جاء فى جريدة لطفى السيد استنكاره « للحركة الحاضرة بمصر ، لأن إعانة ليبيا على حرب إيطاليا ، قد ظهرت بشكل الجهاد الدينى ، وهذا خطأ ضار بمصر »(٧٤) .

ولقد غالى لطفى السيد وجيله ، فى نبذ الإسلامية والدعوة إلى الوطنية فقال فى عام ١٩١٣ : « كان من السلف من يقول بأن أرض الإسلام وطن لكل المسلمين ، تلك قاعدة استعمارية ،تتمشى مع العنصر القوى الذى يفتح البلاد باسم الدين ... أما الآن فقدأصبحت هذه القاعدة لا حق لها فى البقاء ، لأنها لا تتمشى مع الحال الراهنة للأمم الإسلامية فلم يبق إلا أن يحل محل هذه القاعدة المذهب الوحيد المتفق مع أطماع كل أمة شرقية لها وطن محدود ، وذلك المذهب هو مذهب الوطنية »(٧٥) .

وعمل لطفى السيد بكل طاقته لحذف فكرة الإسلامية من أذهان المسلمين وكان يقدم مصر كمثل فى هذا المجال فيقول : إن أول معنى للقومية المصرية وتحديد الوطنية المصرية والإحتفاظ بها والغيرة عليها ، غيرة التركى على وطنه ، والإنجليزى على قوميته ، لا أن نجعل أنفسنا ، وبلاد أخرى (على المشاع) وسط ما يسمى خطأ بالجامعة الإسلامية ،تلك الجامعة التى يوسع بعضهم

معناها ، فيدخل فيه أن مصر وطن لكل مسلم(٧٦) .

وكان تلاميذ لطفى السيد يعضدونه بكل الأساليب التى تثبت أفكارهم .

يقول طه حسين : « فى مقال نشر فى جريدة كوكب الشرق ١٩٣٣ : » « إن المصريين قد خضعوا لضروب من البغض ، وألوان من العدوات جاءتهم مع الفرس واليونان ، وجاءتهم من العرب »(٧٧) .

فالعرب محتلون أيضا ، لا هداة إلى دين الإسلام .

ومن الغريب أن يقول طه حسين ذلك ، وبلده ترزح تحت الاحتلال البريطانى الذى ناء عليه بكلله .

هكذا قدر أن يتسرب الضعف والانهيار الكامل « لفكرة الإسلامية » حتى لم يعد جماهير المسلمين أنفسهم يأبهون بها وقامت الثورات العربية ضد الاستعمار الغربى فى سنى الاحتلال ، ولم يكن طابعها إسلاميا ، بل كان قوميا ، تقودها أحزاب سياسية علمانية .

إذن فمنذ بداية القرن العشرين يشهد المسلمون العرب الميلاد الحقيقى للعلمانية فى الحياة بكل أشكالها وتياراتها . ويرى بعضهم أن هذا التيار الذى بلغ ذروته فى ثورة ١٩١٩ والذى وقف فيه

مسيحيو مصر بجانب المسلمين وقفة ، لولاها « ماكان يمكن للفكر السياسى أن ينتقل من فكر العصور الوسطى إلى علمانية وليبرالية القرن العشرين » (٧٨) .

وبعد ثورة ١٩١٩ أبيح لكل الأفكار العلمانية والليبرالية أن ترعى فى مصر وتمرح . وأصبح لكل فكر وافد ملتقطوه . وفى آخر العشرينات من هذا القرن تحدث الأزمة الاقتصادية العالمية ، ويستقبل أخبارها الليبراليون المصريون ، وأخذوا يناقشون ما تنقله الأنباء عنها ، عن أسبابها ، وعن الحلول التى تمكن من حلها وفى النهاية أرجعوا أسباب حدوثها إلى تناقض وقع بين المبادىء السياسية والاقتصادية ، فالسياسيون يسعون لتقوية العصبيات الجنسية بحيث تسعى كل دولة لما فيه مصلحتها بغض النظر عما يلحق بغيرها من الأذى .

كذلك من أسبابها سوء النظام الرأسمالى فى الولايات المتحدة الأمريكية ، الذى حصر ثلثى الصناعات الأمريكية فى بضع نقابات ، وحصر الثروة فى أيدى عدد يسير من الرجال لايزيدون على خمسة آلاف ، يتصرفون فى مصير أمة مؤلفة من أكثر من مائة وعشرين مليونا من الأنفس . (٧٩) .

وقد تأثر بعض المصريين بهذه المأساة الإنسانية ، وخاصة وكان قد تأسس فى مصر حزب شيوعى سرى يدعو إلى

الاشتراكية ، أسسه اليهودى المليونير هنرى كوريل . ثم بدأت الأفكار الغربية الأخرى تغزو مجتمع المثقفين المصرى ، فهناك البراجماتية ، وقد واكبت التبشيرية الأمريكية ولم تنفصل عنها وهى فلسفة أمريكية صميمة ، وضعها الفيلسوف الأمريكى وليم جيمس ١٨٤٢ ــ ١٩١٠ ، وبها لم تعد الفلسفة الأمريكية عالة على الفلسفة العابرة من أوربا وتحددت الفلسفة البراجماتية فى « أن معنى أى قول لا يكون فى الأفكار الواضحة المتميزة ، وإنما فى حالات الفعل المرتبطة به . » (٨٠)

إذن فقد أقبلت البراجماتية لتضع معيار النجاح « جاءت لتغير وجهة النظر من أساسها ، فبدل الالتفات إلى ما كان عند تحقيق فكرة ما ، يلتفت إلى ما سيكون ... يلتفت إلى المستقبل الذى سيعقب وجود الفكرة ويبلورها ، فهى صواب إن كانت نتائجها مما يسعف ظروف حياتنا العملية ويفيدنا فى حل مشكلاتنا ، وهى خطأ إذا لم يكن لها مثل هذا الأثر » (٨١)

وانحاز الشباب ، فمن كان يبحث عن العدالة الاجتماعية ، زعم أن ضالته فى اعتناق المذاهب الاشتراكية ، ومن كان يبحث عن الحرية زعم أن ضالته فى الديمقراطية .

ثم جاءت الوجودية « وليس لها مسلك فى الحياة من إحساس ، أو منظور تريد أن تدركه أو تحققه » (٨٢) ووجدت

هى ضالتها فيمن لم يألفوا السلوك والتفكير النمطى الذى يقيده به المذهب المحدد القواعد والمبادىء .

وخلاصة القول ، » فقد أهملنا تراثنا ، ولم نلتفت إليه ... وأصبح لدى الكثيرين اعتقاد بعدم قابلية (المسلمين) للتقدم ، وأنه لم يكن لأجدادنا أى جهد فكرى عالمى وأنه لم ينشأ بين العرب من استطاع أن يبلغ فى ميدان العلم مبلغ علماء أوربا .... وأن هذه الأفكار سائدة ومسيطرة على المثقفين ، وأصحاب الشهادات العلمية ، وليت الأمر يقف عند هذا الحد ، حد الإنكار ، بل يتعداه إلى الاستخفاف بكل ما هو شرقى عامة ، وعربى خاصة ، وإلى التنقص من جهد السلف وفضلهم على المدنية » (٨٣)

كان هذا هو الحال فى هذه الحقبة ، حتى هبت صحوة إسلامية ، لتوضح لأولئك وهؤلاء ، « أن العودة إلى الإسلام خير من كل هذه المذاهب ، وتؤكد أن للمسلمين مذهبهم الخاص بهم فى المعرفة والسلوك من خلال فهمنا للنصوص » مادمنا نريد أن نظل مسلمين تحكمنا أصول الإسلام ، ونتعرف وجوه النفع والضرر من وجهة نظر إسلامية ، وإن سلوك أى طريق آخر هادم لأسباب النهضة عند الأمم الضعيفة بوجه خاص لأنها لا يقوم لها نهضة إلا على مغارسها وأصولها الأولى ، والنهضة على غير هذا الأساس فناء لذات العنصر الأضعف فى العنصر الأقوى » (٨٤) .

ولكن كيف حدثت هذه الصحوة الإسلامية ؟

تأسست جماعة الإخوان المسلمين ١٩٢٩ وركزت على التربية الإسلامية والفكر الإسلامى وكانت متأثرة بفكر الشيخ محمد رشيد رضا الذى انسلخ فكريا عن شيخه محمد عبده منذ موته ١٩٠٥ وصار مفكرا سلفيا خالصا حتى وفاته عام ١٩٣٥ .

وظل الشيخ رشيد رضا يتصدى وحده للعلمانيين الغربيين والمحليين قرابة الثلاثين عاما ، حتى جاوز السبعين من عمره . وفى هذه الأثناء برز إسلامى شاب تخرج من كلية دار العلوم وكان أول دفعته يدعى حسن البنا . وكان مقبلا على الحياة ، متطلعا إلى تحسين أحوال المسلمين بتفهمهم أصول الإسلام الصحيح . فى هذه الفترة كان الشيخ رشيد رضا يعانى من الشيخوخة والمرض وضيق ذات اليد ، والغربة عن الأهل .

ولم تظهر ثمرات دعوة البنا إلا فى الثلاثينيات ، قبيل الحرب العالمية الثانية ، وكان المسلمون وقتها يبحثون عن ملاذهم الحقيقى بعدما رأوا كل الذين كذبوا عليهم يتقاتلون من أجل اغتنام الشرور ، فى حرب عالمية شاملة .

فى هذه الأثناء أحس العلمانيون أن الناس المحتاجين إلى مأوى روحى يلجأون اليه بدأوا ينفضون من حولهم ، فحاولوا أن يقتربوا منهم ببعض الأعمال ذات المظهر الدينى فكتب محمد حسين هيكل حياة محمد وألف طه حسين على هامش السيرة ، وألف توفيق الحكيم محمد النبى البشر .

وربما رضى عنهم الإسلاميون ـــ وقتها ـــ ولكنهم على حد قول أنيس منصور وهو ثمرة من الشجرة التى أنبتتهم ، « لم يعودوا إلى الإسلامية ، وإن المحلل لهذه الأعمال لا يعيه أن يفهم ذلك بسهولة » (٨٥) فهم قد ألفوا أعمالا ذات مظهر إسلامى ، ولكن من وجهة نظر العقل الخالص ، « تحكم العقل المجرد والمتحرر من كل المواريث الفكرية والسلوكية ولا تبالى أن تلتقى مع الدين فى كل وجهات النظر أو فى بعضها ، أو تتعارض معه وتخالفه »(٨٦) ويضم د . محمد محمد حسين العقاد إلى هذه الكوكبة من المفكرين العلمانيين .

فيقول : « إن طه حسين والعقاد قد اكتسحتهما الموجة الإسلامية العارمة فتتابعت كتبهما بعد أن أصبح ذلك هو البدع الشائع الذى يغمر الأسواق ، ولم يعد التشدق بالكفر ونظرياته المستوردة سمة من سمات المفكرين تستهوى الأغرار من الشباب كما كان فى العشرينات » .

«ويرجع هذا الانقلاب الفكرى إلى عدة عوامل عدلت بالناس ، وبكثير من المفكرين عن طريق احتذاء الحضارة الغربية والفكر الغربى ، وردتهم إلى طريق الإسلام . (ومنها) قضية فلسطين وزيادة نفوذ الصهيونية ، وظهور جمعيات إسلامية عظيمة » (٨٧) عام ١٩٢٩ .

وكان الشيخ رشيد رضا يحمل لواء الإسلامية ، يواجه به اعداءها من العلمانيين القوميين ، ومن المبشرين الغربيين وأدى رسالته على هذا الوجه ، حتى تسلم اللواء الشيخ حسن البنا . فأدخل الحركة الإسلامية فى الميدان العملى ، ليحرك به المسلمين فى حركة فعالة داخل مجتمعهم .

وأهم ما جاء به حسن البنا ، أنه سار قدما إلى الأمام لا ينظر يمينا ولا يسارا ، ورفض تعدد المصطلحات ، التى تميز بين الدينى وغير الدينى ، فالذى أتى به محمد ﷺ هو الإسلام وحسب ، تكمن فيه كل الأمور المتعلقة بالدنيا والآخرة ، لتدل دلالة واحدة على الإسلام . يقول البنا : « إننا ندعوا إلى الإسلام الذى جاء به محمد ﷺ والحكومة جزء منه ، والحرية فريضة من فرائضه ، فإن قيل لكم هذه سياسة فقولوا هذا هو الإسلام ، ونحن لا نعرف هذه الأقسام » (٨٨) .

وساعدت مأساة فلسطين على التفاف المسلمين حول

الإسلاميين على أن الإسلامية لم تترك لتسير فى طريقها ، حتى تدعم الفكر الإسلامى فى أذهان المسلمين ، فإن دعاة العلمانية كانوا يعدون للظهور من وقت لآخر ، هذا فضلا عن الظروف السياسية والاجتماعية التى كانت تعيشها البلاد ، فى ظل ملكية فاسدة ، وأجهزة إدارية عفنة ، وصراع حزبى لا ينتهى من أجل تحقيق مصالح شخصية لا تعمل لصالح الوطن والناس .

وأذنت المرحلة ببدء صراعات من نوع جديد ، طرفها فى داخل المجتمع الإسلامى والآخر خارجه ، ففى الأربعينات أخذت المشكلة الفلسطينية وجهة حاسمة ، فاليهود باتوا يرفضون مبدأ تقسيم الأرض الفلسطينية بين أصحابها و اليهود ، وأصبحوا يطالبون بإنشاء وطن ودولة فوق الأرض كلها ، وأيد الاستعمار مطلبهم ، بعد أن انضمت إليه الولايات المتحدة الأمريكية ــ وعقد مؤتمر بالتيمور فى فندق بالتيمور فى نيويورك فى الولايات المتحدة ، وكان نجاح هذا المؤتمر فى إعطاء الحق لليهود بإنشاء وطن ودولة يهودية على كل أرض فلسطين « أعظم ثمرة حققتها الحركة الصهيونية » (٨٩) فى تاريخها .

ولم يرجع هذا النجاح إلى قدرة اليهود الفائقة فى كسب هذه الشعوب لضمان وجودها فى فلسطين ، والاعتراف الفعلى بكيانها فيه ، ولكن الدول الاستعمارية كانت تخشى من اليقظة الإسلامية ،

وبدأت تعد لإحباطها ، وكان إنشاء وطن قومى لليهود فى قلب الأمة الإسلامية ، أكبر الوسائل عملا على إحباط هذه اليقظة ، فقد جاء فى تقرير اللجنة الملكية الإنجليزية التى عرفت فيما بعد بلجنة النبيل الأيرل بيل عام ١٩٣٧ وهى اللجنة التى اقترحت تقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، إنه يخشى من بعث إسلامى ، وهو ما عبر عنه فى الباب الثالث من هذا التقرير المعنون ب :

الباب الثالث : إمكان الوصول إلى تسوية دائمة .
الفصل العشرون : ضغط الظروف

فقد جاء فيه : « إن العرب يطمحون إلى إحياء عصر العرب الذهبى » (٩٠) ويقول إنجليزى آخر « إن العرب قد شقوا قرونا طويلة تحملوا فيها الظلم والعسف ولكن هل مات العرب كلا فالسامى ينام ولكنه لا يموت ...

إن حضارة العرب قادمة ، ولا يستطيع السلاطين والأباطرة منع مجيئها ، ومتى جاءت فسيعجز التسيطر والفتح ، ورجال المال عن الإلمام بها والسيطرة عليها .

(ثم يوصى اليهود) بحسن التفاهم (بعد الاستيلاء على فلسطين) مع المسيحين ، فالاستيلاء على فلسطين والقدس يصلح لهما معا ولهذا يقول : إنا معشر المسيحيين نصلح خطأ عظيما

بمساعدتنا للصهيونيين ... وإن فى تحقيق أمانيكم ضمانا بسلم العالم ، وإنى أراكم الآن بعين الخيال تعاونون معاونة أدبية على أمن البلدان الصغيرة وحمايتها ، لأنكم تكونوا أصغر الدول وأعظمها فى آن واحد » (٩١) .

إذن فقد كان السبب المباشر الذى اتفق عليه كلا من الاستعمار الإمبريالى ، والصهيونية ، هو إيقاف البعث الإسلامى ، الذى يمكن العرب من إعادة مجد العصر الذهبى . وقد أحس المسلمون بهذا الخطر ، فاستيقظت فيهم فكرة الإسلامية .

واشتد الحنين أكثر وأكثر إلى تحقيق مجد الإسلام سنة ١٩٤٨ العام نفسه الذى ضاعت فيه فلسطين إلى حين . وبدأت الحركة الإسلامية فى مصر تأخذ المبادرة العملية فقد اصدرت بيانا عام ١٩٤٨ بعنوان :

مشاكلنا الداخلية فى ضوء النظام الإسلامى

وأهم ما جاء فيه .

١ ــ إن الإسلام يرفض أن توجد طبقة تحتكر الثروة ، وفى مقدمة ما عنى به من الناحية الاقتصادية توزيع الملكية الزراعية .

٢ ــ إن الرسول ﷺ قد وضع العلاج الناجع لما تعانية مصر

الآن من التباين الشاسع فى توزيع الملكيات ، فقال من كان له أرض واسعة فليزرعها أو يمنحها أخاه ، ولا يؤجرها إياه ولا يكريها .

٣ ــ إن مؤدى ذلك أن الملكية الفردية يجب أن تكون محدودة بطاقة الإنسان على زرع أرضه وما زاد عن ذلك يجب أن يوزع على المعدمين فلا استغلال بالإيجار ، بل لا تأجير مطلقا .

٤ ــ إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حينما فتح المسلمون أرض سواد العراق ، وأرادوا قسمة أربعة أخماسها بين الفاتحين أبى عليهم ذلك وقال : ما يفتح بلد فيكون فيه كبير نيل ، حتى يأتي المسلمون من بعدهم ، فيجدوا الأرض قد قسمت وحيزت وورثت عن الآباء ، وتضيع الذرية والأرامل .

٥ ــ إن الإسلام يحارب الإقطاعات الشاسعة اليوم فى النظام الرأسمالى .

٦ ــ كما يحارب الشيوعية اللادينية ، التى تنادى بأن تكون الأرض ملكا للدولة ، فينهار بذلك ركن من أركان الاقتصاد السليم فضلا عن تجاهل المبدأ الضرورى فى الإنسان وهو حب التملك .

٧ ـــ إن الحل الوسط بين الرأسمالية والشيوعية هو أن يمتلك الإنسان بقدر طاقته الزراعية وما زاد عن ذلك يجب أن يعطيه لغيره من المعدمين مجانا .

فالبيان كما نرى يريد أن يقضى على هذه الطبقة التى أنشأها الاحتلال الإنجليزى كما أراد أن يقضى معها ، على كل مقوماتها من فكر إقطاعى ، على أن تكون العودة إلى الإسلام ، فهو الضمان الوحيد للحياة الكريمة .

وقد أرسل وزير الداخلية هذا البيان لمفتى الديار المصرية وكان فى ذلك الوقت فضيلة الشيخ محمد حسنين مخلوف ، يطلب بيان الحكم الشرعى فيه .

وجاءت الفتوى قريبة مما جاء فى بيان الجماعة الإسلامية ، ولا تطابقه ، وكان أهم ما أشارت إليه :

« إن مبادى الإسلام وتعاليمه فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة ... وحدها هى النظام المثالى للاجتماع والحضارة والعدل والسلام ، وأنه لا منجى للعالم مما حاق به إلا الأخذ بها والعيش فى ظلالها » (٩٢) .

ومنذ عام ١٩٤٨ بدأ كل الناس فى المجتمع على اختلاف مشاربهم ينظرون إلى ذلك الضوء الجديد ، الذى أتى هذه المرة واضحا جليا عريضا عميقا ، يفرض نفسه ، على كل جنبات العالم

الإسلامى واتجاهاته الثقافية .

وبدأت مرحلة حاسمة فى تاريخ الحركة الإسلامية ، كما بدأت صراعات رهيبة مع السلطة الحاكمة — فى ذلك الحين — وكان لابد من وقوع الصدام بين الإسلاميين والسلطة الملكية . فلقد كان لكل منهما نزوعه السياسى ، فالإسلاميون يعتقدون أن المسلم المعاصر قد هيىء لتقبل مبادىء إسلامية مثل فكرة الشورى ، وعالمية الإسلام ، وحتمية الحلول النابعة من الإسلام . كما بدأوا يعلنون فساد الأنظمة الأخرى المحلية والعالمية لأنها فى تصورهم خارجة على الإسلام .

وكانت نتيجة هذا الصراع تشتيتهم وقتل مرشدهم ، ولكنهم كانوا قد رسخوا إيمان المسلمين بخطورة موقفهم من الاستعمار والصهيونية ، وكيف أن أهم دواعى الاحتلال هى إيقاف البعث الإسلامى ، الذى يمكن أن يعيد العصر الذهبى للعرب والمسلمين وهكذا تنبه المسلمون بهذه الخطة ، فبدأوا مرحلة جديدة من مراحل التصدى لهذه القوى التى تسخر من ضعف المسلمين ، وتتآمر على الإسلام ، ابتداء من بداية النصف الثانى من هذا القرن .

* * *

ثبت المراجع والحواشى والتعليقات

١ ــ عبد الرحمن الجبرتى ــ عجائب الآثار والتراجم والأخبار ص ٧١٧ ، مطبعة الشعب ــ القاهرة ، ١٩٥٨ ــ ١٩٥٩ .

٢ ــ مجموعة أبحاث عن الجبرتى بإشراف الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ص ٣١٣ ، ندوة أقامتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية من ١٦ ــ ٢٣ إبريل ١٩٧٤ ونشرت فى كتاب ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ .

٣ ــ السيد جمال الدين الأفغانى ــ الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى ص ١٢٧ بتحقيق محمد عمارة ــ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٨ .

٤ ــ يوسف كرم وآخرون ــ المعجم الفلسفى ص ١٠١ القاهرة مارس ١٩٦٦ .

٥ ــ مجموعة أبحاث الجبرتى ــ مرجع سابق ص ١٣ ، ٤١ .
ونضيف هنا قولا للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ، أورده فى بحثه بعنوان : الجبرتى مؤرخا قال ما نصه : « لم يدرك الجبرتى أن الدولة العلمانية الحديثة التى وضع أساسها محمد على لا تفرق بين مواطن وآخر إلا بمقدار ما يقدمه لها من خدمات دون اعتبار لدين أو طبقة أو جنس أو لون » (مجموعة أبحاث عن الجبرتى ص ٤١)
وقال فى البحث نفسه : ولهذا فقد استقبح الجبرتى مستحدثات الفرنسيين والتحلل من المثل الأخلاقية التى انطبع بها المجتمع المصرى ... وتحدى العرف الإسلامى .

٦ ــ دكتور عزت قرنى ــ العدالة والحرية فى فجر النهضة العربية الحديثة ص ١٠٣ ، سلسلة عالم المعرفة ــ الكويت ١٩٨٠ .

٧ ــ دكتور محمد البهى ــ الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر مشكلات الأسرة والتكافل ص ١١ طبع ببيروت ١٩٦٧ .

٨ ــ تاريخ الجبرتى ــ مرجع سابق ، ص ٣ .

٩ ــ نفسه ص ١١٧ ، ٤٦٣ .

١٠ ــ نفسه ص ٤٢٣ .

١١ ــ دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى ، بحوث عن الجبرتى

مرجع سابق ٣٧ .
١٢ ــ كرين برنتون ــ أفكار ورجال أو قصة الفكر الغربى ص ٥٠٨ . ترجمة محمد محمود ــ مؤسسة فرانكلين ١٩٦٥ .
١٣ ــ تاريخ الجبرتى ص ٧١٧ .
١٤ ــ نفسه ٢٨٤ ــ ٢٨٥ .
١٥ ــ نفسه ٤٢٣ .
١٦ ــ نفسه ٧٤٢ .
١٧ ــ نفسه ص ٢٨٠ ــ ٢٨٤ وارجع إلى روايته لمحاكمة المجاهد المسلم الشهيد سليمان الحلبى ص ٣٧٥ وما بعدها .
١٨ ــ مجموعة أبحاث عن الجبرتى مرجع سابق ص ٥٧ .
١٩ ــ عن الجبرتى مرجع سابق ص ٣٣٥ ، وارجع إلى روايته عن أحد البلهاء الذى كان يمشى عريانا فى الأسواق مكشوف السوأتين ، وكان الناس يعتقدون فى كراماته وأقبلوا عليه رجالا ونساء يلتمسون بركته ، ويغدقون عليه .
٢٠ ــ الجبرتى مرجع سابق ٣٤٣ .
٢١ ــ د . أحمد سعيد الدمرداش مقال شخصيات علمية قلقلة ص ٣٩ من مجلة العلم (قاهرية) العدد ٩٠١ أغسطس ١٩٨٣ تصدرها أكاديمية البحث العلمى ــ دار التحرير

للطبع والنشر .

٢٢ ــ الشيخ محمد رشيد رضا ــ مجلة المنار ١٢/٨٢٤ .

٢٣ ــ نفسه .

٢٤ ــ الشيخ محمد عبده ونص المقال فى مجلة المنار ٥/٥/١٧٥ ــ ١٨٣ .

٢٥ ــ الجبرتى ــ مرجع سابق أحداث شعبان ١٢٢٢ ه .

٢٦ ــ الجبرتى ص ٢٣٨ ارجع إلى موقف الشيخ عبد الله الشرقاوى ضد محمد بك الألفى زعيم المماليك فى رد الظلم عن أهالى شرقية بلبيس .

٢٧ ــ الأب ــ جوميه ــ مؤتمر القاهرة الدولى مارس إبريل ١٩٦٩ ، ص ٣٠ .

٢٨ ــ د . وليم سليمان ــ الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصهيونية ص ٢٤ ــ ٢٥ سلسلة فى المعركة بدون تاريخ ، وزارة الثقافة ــ دار الكاتب العربى للطبع والنشر .

٢٩ ــ د . عزت قرنى ــ العدالة والحرية ، مرجع سابق ، ص ١٠٧ .

٣٠ ــ نص مقال جابر بيل هانوتو فى كتاب : الإسلام والرد على منتقديه ، ص ١٣ المكتبة التجارية ، ١٣٤٦ ــ ١٩٢٨ .

٣١ ــ د . وليم سليمان ، الكنيسة المصرية ، مرجع سابق ، ص ١٨ .

٣٢ ــ مقال هانوتو ، مرجع سابق ، ص ٥ ، ٢٢ .

٣٣ ــ د . عزت قرنى ، العدالة والحرية ، مرجع سابق ، ص ١٠٣ .

٣٤ ــ نفسه ، ص ١٠٣ ، وهنا يجب الالتفات إلى نقطة هامة فقد رأى د . محمد البهى فى كتاب الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر (مرجع سابق ، ص ١١) أن أتاتورك أول العلمانيين الرسميين فى الشرق الإسلامى ، لأنه ألغى الحكم بالشريعة الإسلامية ، وأحل محلها القانون الوطنى الأوربى . ولكن الخديوى إسماعيل سبقه فى مصر بنحو من نصف قرن حينما كلف رفاعة الطهطاوى بأن يترجم له القانون الفرنسى الوضعى عام ١٨٦٣ للعمل به فى المحاكم بعد إلغاء العمل بالشريعة الإسلامية وإلغاء المحاكم الشرعية ذاتها فى ذلك الحين .

٣٥ ــ د . فهمى جدعان ــ أسس التقدم عند مفكرى الإسلام فى العالم العربى الحديث ص ١٧٦ ــ ١٧٧ طبع بيروت ١٩٧٩ عن كتاب علم الدين لعلى مبارك المطبوع فى مطبعة المحروسة بالأسكندرية عام ١٨٨٢

ج ١/٣٠٨ — ٣١٣ .

٣٦ — نفسه ١/١٨٠ .

٣٧ — إذ رفعت إحدى الجماعات الإسلامية بيانا للحكومة تطالب فيه بأن تكون الأرض لمن يزرعها فقط ، وألا يزيد ما يزرعه عن قدرته عليها ويوزع الباقى على المعدمين ، كما كان يفعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه . (عن مجموعة الفتاوى الإسلامية — دار الإفتاء الإسلامية — المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ج ١٣ ص ١٥٧٧ — ١٥٩١ .

٣٨ — الأفغانى — الأعمال الكاملة — رسالة الرد على الدهريين ص ١٣٠ . تحقيق محمد عمارة .

٣٩ — نفسه ص ١١١ .

٤٠ — مقال هانوتو ص ٢٦ .

٤١ — الشيخ عبد القادر المغربى — جمال الدين الأفغانى — خاطرات وأحاديث ص ٩٨ سلسلة إقرأ رقم ٦٨ الطبعة الثانية ، دار المعارف .

٤٢ — نص التقرير بمجلة المنار ١٠/٢١٤ — ٢١٨ .

٤٣ — الشيخ محمد رضا تاريخ الإمام ١/٩١٣ .

٤٤ — مجلة المنار ١٠/٢١٩ .

٤٥ ـــ مقال هانوتو ص ٢٧ .
٤٦ ـــ د . سامى عزيز ـــ الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الإنجليزى ص ٢٢٤ دار الكاتب العربى للطباعة والنشر عن كتاب مصر الحديثة للورد كرومر .
٤٧ ـــ اللورد كرومر ـــ عباس حلمى الثانى ص ٤٦ مطبعة محمد محمد مطر بدون تاريخ .
٤٨ ـــ د . وليم سليمان مرجع سابق ، ص ٥٤ .
٤٩ ـــ نفسه ص ٦٨ .
٥٠ ـــ هنرى أيكن ـــ عصر الأيديولوجية ص ٢٥٩ ترجمة فؤاد زكريا مراجعة عبد الرحمن بدوى ـــ الألف كتاب ١٩٦٣ .
٥١ ـــ د . سامى عزيز ـــ مرجع سابق ، ص ١٠١ .
٥٢ ـــ نفسه ، ص ٩٦ .
٥٣ ـــ نفسه ص ٩٧ .
٥٤ ـــ نفسه ص ١١٥ ـــ ١١٦ عن المقتطف عدد يونيو ١٨٨٦ .
٥٥ ـــ نفسه ١٣٩ عن جريدة الإعلام فى ٢١ يناير ١٨٨٥ .
٥٦ ـــ مجلة المنار ١٥/٣٤ .
٥٧ ـــ د . عمر فروخ ، د . مصطفى الخالدى التبشير والاستعمار فى البلاد العربية ص ١٨٣ المكتبة العلمية

بيروت ، ١٩٥٣ .
٥٨ ــ مجلة المنار ١٤/١٨٠ .
٥٩ ــ د . سامى عزيز ، مرجع سابق ص ٣٠٨ ــ ٣٠٩ .
٦٠ ــ رشيد رضا « تاريخ الإمام « ١/٤٠ ــ ٤١ .
٦١ ــ دكتور سامى عزيز ، مرجع سابق ص ٣٧٧ عن مجلة الأستاذ عدد ٢٣/٥/١٨٩٣ .
٦٢ ــ مجلة المنار ١٥/٣٣ .
٦٣ ــ تفسير المنار ٤/٧٨ ، ٣٢٤ .
٦٤ ــ د . سيد بدوى ــ بحث أصل الأنواع لدارون ص ٩٧٣ .
تراث الإنسانية المجلد الثانى ١٩٦٤ .
٦٥ ــ موريس بوكاى مقال : عرض كتاب الإنسان من أين يأتى ص ٦٣ .
عن مجلة الأمة الإسلامية العدد ٣٥ .
٦٦ ــ أحمد لطفى السيد ــ قصة حياتى ص ٢٤ ، كتاب الهلال ١٩٦٤ .
٦٧ ــ تفسير المنار ١١/٣١ .
٦٨ ــ تفسير المنار ٤/٧٨ ، ٣٢٤ .
٦٩ ــ تفسير المنار ١١/١٤ ــ ٣١ .

٧٠ ــ د . جلال يحيى ــ تطور المشكلة الفلسطينية ص ٦٣ مجلة الكاتب العدد ٦٧ إبريل ١٩٦٩ ، تصدر عن المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر .

٧١ ــ د . أحمد سعيد الدمرداش مرجع سابق ، ص ٣٨ ــ ٤٠ .

٧٢ ــ كرومر ــ عباس حلمى الثانى ــ مرجع سابق ، ص ٤٦ .

٧٣ ــ أنور الجندى ــ اليقظة الإسلامية فى مواجهة الاستعمار منذ ظهورها إلى أوائل الحرب العالمية الأولى ــ دار الإعتصام ١٣٩٨ ــ ١٩٧٨ .

٧٤ ــ مجلة المنار ١٥/٣٤ .

٧٥ ــ د . محمد جابر الأنصارى ــ تحولات الفكر فى الشرق العربى من ١٩٣٠ ــ ١٩٧٠ ، ص ١٢٠ سلسلة عالم المعرفة الكويتية ١٩٨٠ .

٧٦ ــ أحمد لطفى السيد ــ مبادىء فى السياسة والأدب والاجتماع ص ١٢٦ كتاب الهلال أغسطس ١٩٦٣ ..

٧٧ ــ د . محمد جابر الأنصارى ، مرجع سابق ، ص ١٣٩ .

٧٨ ــ د . مصطفى الفقى ، بحث : الأقباط فى السياسة المصرية ــ ضمن كتاب الشعب الواحد والوطن الواحد

ص ٨٧ مركز الدراسات السياسية ، الأهرام ١٩٨٢ .
٧٩ ـ مجلة الهلال إبريل ١٩٣٣ ص ٧٣٣ .
٨٠ ـ هنرى أيكن ، مرجع سابق ، ص ٣٢٩ .
٨١ ـ د . زكى نجيب محمود ، حياة الفكر فى العالم الجديد ،
ص ١٦٨ .
الأنجلو المصرية ، ١٩٥٧ .
٨٢ ـ هنرى أيكن ، مرجع سابق ، ص ٢٧٧ .
٨٣ ـ قدرى حافظ طوقان ـ الدورة ٣٩ لمجمع اللغة العربية
ص ١٠٢ ـ ١٠٣ ، ١٣٩٣ ـ ١٩٧٣ .
٨٤ ـ حوار مع د . محمد محمد حسين ، مجلة الأمة الإسلامية
ص ٢٥ ، ٢٦ العدد ٣١ (رجب ١٤٠٣) .
٨٥ ـ أنيس منصور ـ يسقط الحائط الرابع ص ٤٥ دار القلم
١٩٦٥ .ـ انظر الاستدراك صـ ١٠٦ـ
٨٦ ـ حوار مع د . محمد محمد حسين ـ مرجع سابق
ص ٢٦ .
٨٧ ـ نفسه .
٨٨ ـ سعيد حوى ـ المدخل إلى دعوة الإخوان المسلمين
ص ٢١٢ الطبعة الثانية ١٣٩٩ ـ ١٩٧٩ .
٨٩ ـ د . حسن صبرى الخولى ـ سياسة الاستعمار

والصهيونية تجاه فلسطين فى النصف الأول من القرن العشرين ٧/١ ، دار المعارف ١٩٧٣ .

٩٠ ـ نفسه٢/٢٩٣ .

٩١ ـ نفسه٢ / ١١ ـ ١٢٠ وقد نشرت هذه الوثيقة فى حينها ، يوم أن ألقاها مارك سايكس وزير الخارجية الإنجليزى ١٩١٨ ، جريدة المقطم القاهرية فى عدد ١٠ يناير ١٩١٨ ، ولم تحرك أحد حينذاك ، لأن المصريين كانوا مشغولين بقضاياهم الوطنية ، وكانت الحركة الثقافية والوطنية تنادى بإبعاد مصر عن مشاكل الشقيقات العربيات الإسلاميات .

٩٢ ـ مجموعة الفتاوى ، مرجع سابق ١٣/١٥٧ ـ ١٥٩١ .

استدراك على الهامش رقم (٧)

علمانى وعلمانية :

يحاول العلمانيون العرب ، إبراز العلمانية فى صورة المذهب العقلى الذى يقوم على الانتفاع بالعقل الإنسانى ، فى

بعث التطور والتجديد ، واستغلال معطيات الحياة المادية ، من أجل تطوير المجتمع ، وتحويله إلى مجتمع صناعى متقدم . كما هو حادث فى المجتمعات الغربية المتقدمة فى مجالات : العلم والثقافة والنظم الحكمية والإدارية ، وما إلى ذلك ، دون أن يبرزوا تعارض العلمانية مع الدين .

والإسلام ابتداء لا يعرف هذه التقسيمات ، فهو يدعو إلى الاستفادة من قوة العقل ، والاستفادة من كل ما هو مادى ، ويدعو كذلك إلى الإيمان بالله ، وبالقضاء والقدر . وهو ما ترفضه العلمانية ، ولا تقبل ـــ مجرد التعايش معه .

ومن ثم فسنورد تعريفاتهم بنصها ، ثم تعريفات العلمانيين الغربيين بنصها فى لغتهم الأصلية ، لنبين كيف أن العلمانية لا تقبل التعامل مع كل ما هو دينى .

يذكر معجم العلوم الاجتماعية ـــ إعداد نخبة من الأساتذة المصريين والعرب المتخصصين ـــ تصدير ومراجعة د . إبراهيم بيومى مدكور ـــ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٥ فى مادة علمانى وعلمانية . صفحة : ٢١١ ، ٤٢٥ .

علمانى : Secular (E .)
Secularise (F .)

نسبة إلى العلم بمعنى العالم ، وهو خلاف الدينى أو الكهنوتى ، وهذه تفرقة مسيحية لا وجود لها فى الإسلام ، وأساسها وجود سلطة روحية هى سلطة الكنيسة ، وسلطة مدنية هى سلطة الولاة والأمراء .

والعلمانيون يحكمون بوجه عام العقل ، ويرعون المصلحة العامة دون تقيد بنصوص أو طقوس دينية ، وكانوا فى الغالب مبعث التطور والتجديد فى المجتمعات الغربية ، ولذا كانوا فى خلاف مع الكنيسة ورجال الدين ، وأوضح ما يبدو نشاطهم فى الثقافة والتعليم ، فلهم ثقافتهم ومدارسهم العلمانية ، وعدت الثورة الفرنسية من أكبر الحركات العلمانية .

أما الجمعية العلمانية : Secular Society (E .)
Secièté Seculaire (F .)

فهى جمعية يغلب عليها التحرر من القيود الكنسية ، والاتجاه فى تعاليمها اتجاهاً علمياً لا يخضع إلا لما تهدى إليه نظريات العلوم وقوانينها ، ويتميز برغبة أكيدة فى التجديد والإصلاح ، والسعى

وراء نظم سليمة ، وصياغة القيم الإنسانية ، صياغة صحيحة ، وقد دفع النضال ونزعة التحرر العلمانيين إلى تكوين جمعيات خاصة بهم تنشر دعوتهم بين أتباعهم ، وتقاوم معارضة المحافظين ورجال الكنيسة .

[وكتب المادتين : حنا رزق]

وبالرجوع إلى معجم ويبستر الشهير

Webester's third new International Dictionary P . 2053 MERRIAM CO . USA 1971 .

والترجمة هي :

علمانى Secular :

« دنيوى Worldly أو لا دينى Pagan ومن معانيه : الشيء الذى يحدث مرة واحدة فى عصره . أو جيل أو شيء وثيق الارتباط بالحياة المعاصرة [وأشهر معانيه الآن] الأشياء الدنيوية ، المتمايزة عن الأشياء الروحية ، غير العقدية ، وغير التى لها صفة الخلود .

ويرى ماندن Mandan أنها ليست من الأشياء المتعرضة للناحية الدينية ، أو مخصصة لها ــ سواء كانت دراما أو موسيقى ــ أو تراتيل ــ أى أنها تعنى فصل كل ما هو دينى عن كل ما هو مدنى .

ويرى أرنولد توينبى A . Toynbee أنها شيء يرتبط بالحكومة والحاكم ، ومن ثم فهى هنا تتمايز عن رجل الدين أى القسيس ، وقد تعنى ملاك الأرض ، والمنتفعين بها ، ولا يرتبط بها ، ولا يحكمها هيكل الحكم الدينى . ومن هذه الوجهة ، فهى شيء عقلانى يقوم أساساً على القيم المنفعية ، وهى بهذا ذات أنماط ، وأمور لها سمات المجتمعات الصناعية الحديثة ، التى تتعارض مع العقيدة ، وترتبط بالعلمانية الدنيوية .

ويرى فرشيلد H . N . Fairchild أن العلمانى : هو الإنسان المستنير ، الذى يبحث فى المباحث الإنسانية .

ويرى لويس ورث Louis Wirth أن العلمانى هو الذى ينبذ الإيمان المطلق ، ويعبر عنه بالنظرة العلمانية للإنسان الحديث ، بمعنى الحياة فى العالم وليس فى دير ، أو فى مجتمع دينى ، مع عدم

الارتباط بالآراء الإكليركية « اللاهوتية » وبحيث تكون أفكاره متعارضة تماماً لأفكار الناسك أوالراهب . . . » .

أما العلمانية ! ! **Secularism .**

a view of life or of any particular matter based on the premise that religion and religious considevation Should be ignored or purposely excluded (a policy of strict - in governement) Specif ; a System of social ethics based upon a docerine that ethical standards and conduct Should be determind exclusively with reference to the present life and Social well being without reference to religion .

P . 2053

Webester's third new Internotional Dictionary U . S . A :

MERRIAM CO - 1971 .

والترجمة هي :

« رؤية للحياة ، أو أى أمر محدد يعتمد أساساً على : أنه يجب استبعاد الدين ، وكل الاعتبارات الدينية وتجاهلها ، ومن ثم فهى نظام أخلاقى اجتماعى يعتمد على قانون يقول : بأن المستويات الأخلاقية ، والسلوكيات الاجتماعية يجب أن تحدد من خلال الرجوع إلى الحياة المعاشة ، والرفاهية الاجتماعية ، دون الرجوع إلى الدين . » .

وبذلك يتضح تعارض العلمانية مع الدين . أى دين . ورفضها التعايش مع كل ما هو دينى ، وكل ما هو روحانى.

هذا ويدعو العلمانيون إلى نشر عقيدتهم ، ويتناسون أن الإسلام يدفع الإنسان إلى العمل بكل ما هو دنيوى ، والأخذ بكل ما هو دنيوى ، والأخذ بكل ما هو أخروى فى الوقت ذاته ، ويدعوه إلى التفكر والتدبر ، والسعى والحركة يقول تعالى : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾ كما يدعوه إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وإلى الإيمان بالقدر خيره وشره ، وبهذا يُحْفَظ للإنسان توازنه المادى

والروحى ، فلا تتغلب طبيعة منهما فيه على الأخرى ، لأن الخالق سبحانه وتعالى ، فطره على هذه الفطرة .

استدراك على الهامش رقم ٨٥

وهناك تفسير ما لانتقال « مدرسة جريدة السياسة » التى كان يتزعمها الدكتور محمد حسين هيكل من الانتصار للعلمانية ، إلى الكتابة فى الموضوعات الإسلامية . ففى الثلاثينيات كان نفوذ التبشير الأمريكى للنصرانية قد بلغ الدرجة القصوى ، وكان متمركزاً فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، بينما امتد نفوذه لكل المدن والأقاليم فى مصر ، وقد ساعد على انتشاره الأزمة الاقتصادية التى كانت تعانى منها البلاد ، وعجز بعض الفقراء الذين طحنهم الجوع والمرض عن مقاومة إغراء المبشرين الأمريكيين ، وإغوائهم .

وزاد الحال سوءاً موقف الحكومة الضعيف حيال التبشير ، لدرجة أن المبشرين استطاعوا تحويل مواطنة بوسعيدية فقيرة إلى النصرانية ، ثم زوجوها من أحد النصارى هو زكى إسرائيل

الفيومى ، ولكن بعد وقت قصير ثابت المواطنة إلى رشدها ، وأعلنت توبتها ، ورجوعها إلى الإسلام ، وتقدمت إلى المحكمة الشرعية ، بدعوى تفريق بينها وبين هذا الزوج لاختلاف ديانتها ، ولأن الشريعة الإسلامية تحرم على المسلمة الاقتران بغير المسلم ، ولكن المحكمة الشرعية العاجزة التى كانت تمثل دولة ضعيفة محتلة من قبل بريطانيا ، ولا تمثل الشريعة الإسلامية القوية ، عجزت عن استصدار هذا الحكم .

والذى زاد الطين بلة ، كما يقال ، أن الحكومة المصرية فى ذلك الوقت كانت تدعم هذه الجمعيات التبشيرية بطريق غير مباشر ، فتعفى مستورداتها من الخارج ، كما كشفت عن ذلك ـــ جريدة السياسة ـــ من الجمارك ، حتى لقد بلغ تنازل الحكومة عن جمارك مستوردات هذه الجمعيات سنوياً ١٣٦٠٠٠ (مائة وستة وثلاثين ألفاً من الجنيهات) تحت اسم المسموحات الجمركية ، هذا بالإضافة إلى تبرعات ومصاريف مدرسية لمدارسها يدفعها أولياء أمور التلاميذ المصريين ، فضلاً عن تبرعات مقدمة من الحكومة ومن مجالس البلديات ، تزيد على أربعة ملايين من الجنيهات .

والجدير بالذكر أن القوة التى وقفت ضد هذا الطغيان

التبشيرى منذ البداية ، هى جموع المسلمين التى هبت تقاوم التبشير بدافع من الحماس الدينى ، على صورة تيار شعبى جارف ، جامع لأشتات المسلمين . وهذا التيار هو الذى حرك الكتاب المشهورين لمؤازرة هذا المد الإسلامى الشعبى ، وفى مقدمتهم طه حسين والدكتور هيكل والعقاد ، وهم أنفسهم الذين وقفوا من قبل للتصدى لمجتمع المتدينين الذى أسموه بالمجتمع التقليدى ، أو مجتمع الجمود السلفى ، أثناء دفاعهم عن فريتى : على عبد الرازق « الإسلام وأصول الحكم » وطه حسين « فى الشعر الجاهلى » قبل أن يتجهوا إلى الكتابة فى الموضوعات ذات الطابع الإسلامى . وبذلك يكونون قد قاموا ، دون أن يكون لهم خيار بدور إيجابى فى هذه الحركة ، وأنجزوا إنجازين إيجابيين فى وقت واحد : أولها المشاركة فى المقاومة الإسلامية الشعبية ضد التبشير ، وثانيهما تنقية صورتهم العلمانية وتطهيرها فى تصور جموع القراء المسلمين . (يمكن الرجوع إلى جريدة السياسة فى ٢٨ / ٦ / ١٩٣٣ و د . عبد العزيز شرف ـــ طه حسين وزوال المجتمع التقليدى ص ٢٢٣ ـــ ٢٢٧ الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٧٧) .

* * *

رقم الإيداع بدار الكتب ٥١٠٧ / ١٩٨٤
الترقيم الدولي ٦ — ٠٤ — ١٤٢٠ — ٩٧٧

الناشر

دار الوفاء للطباعة والنشر

شارع البحر أمام كلية الطب

المنصورة

